إعداد عبده حقي

من أجل ثقافة مغربية رقمية تواكب العصر

مجلة إتحاد كتاب الإنترنت المغاربة

زمن العودة إلى واحة الأسياد

روايـــة

عبده حقي

www.ueimarocains.com

سلسلة إصدارات إلكترونية

جميع حقوق النشر محفوظة

هذه المتاهة الجميلة والمتفردة ..السحيقة .. كانت منذ أمد بعيد تركن في ثنايا ملغزة مازال أجهل انتماآتها الحقيقية ، كل ماأعلمه أنها زارتني ذات لحظة متلبسة بكل الألوان والأبعاد والسبل العنيدة التي قطعتها وعيدا مع الملائكة تارة والشياطين تارة أخرى...

سلسلة منشورات مجلة إتحاد كتاب انترنت المغاربة الإلكترونية

جميع حقوق النشرمحفوظة

زمن العودة إلى واحة الأسياد

رواية

عبده حقي

منشورات مجلة إتحاد كتاب الإنترنت المغاربة الإلكترونية

حقوق النشر محفوظة

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

الإهـــداء

إلى روح والدي رحمه الله وأمي أطال الله في عمرها

إلى فاطمة وياسين

إلى كل العائلة في الوطن العزيزوفي كل جهات المعمور.

إلى روح يحيى حقي وبنسالم الدمناتي وإدريس الجاي ومحمد بنعمارة .

إلى صديقي الكريم الدكتورعثمان جمعان الغامدي مديرتحريرسابق لمجلة الإعلام والإتصال في المملكة العربية السعودية الشقيقة .

إلى صديقي القاص المبدع الأردني ناصرفالح الريماوي حارس ميثاقنا الأبدي (جاليريا) .

إلى الأديبة السورية المتألقة غالية خوجة عضوتحريرمجلة دبي الثقافية ومجلة عشتروت في عزلتها الباذخة .

إلى كل شخوص الرواية الإفتراضيين الذين أحببتهم وأطاعوني في رفقتي والذين عاندوني وتجاهلت شغبهم على الهامش .

إلى كل هؤلاء أهدي رواية : زمن العودة إلى واحة الأسياد

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

سلسلة منشورات مجلة إتحاد كتاب الإنترنت المغاربة الإلكترونية

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

تقديم

أن يقتحم قاص مغربي مغامرة الكتابة الروائية وهولم يراكم من التمرس والدربة السردية سوى مجموعة قصصية يتيمة قد يبدولبعض الأدباء والنقاد الإحترافيين المتتبعين لحركية النشربالمغرب ضربا من المغامرة بالإستثماربرأسمال رمزي ضئيل في مشروع إبداعي أدبي ضخم .. وقد يبدوللبعض ضربا من المغامرة والإبحاربزورق نهري للصيد في أعالي البحار.. وقد يبدو للبعض الآخرضربا من المغامرة بتشييد فيلا بمعدات شقة صغيرة .. بينما قد يعتبرآخرون أن القصة القصيرة هي ذلك الملعب الخلفي الخاص بالإحماء لدخول أشواط الرواية ...

غيرأنه في رأيي الشخصي تبقى الرواية عموما في الوطن العربي وفي الأدب العالمي هي جزيرة حكي مشاع وشاسعة لاتشترط لمرتاديها جوازات سفرأوترخيصا خاصا بالدخول ، فقد يسيح في أرضها القصاصون والشعراء والأطباء والمهندسون والفلاسفة والسياسيون بل حتى من لامهنة أووظيفة لهم .

وبالتالي فإن جميع هؤلاء يلتقون في مدارة واحدة هي التأريخ لتجربة إنسانية بمنطلقات واقعية قد يطعمها الخيال بأبعاد حكائية ترتقي بالمتن الروائي إلى ذروة الدهشة وتحقيق أفق الإنتظارعند المتلقي وقد تكون بمنطلقات خيالية متحايلة على واقع إفتراضي قد لايتحقق إلا في الزمن السردي .

وأعترف أنني حين شرعت في كتابة هذه الرواية البكر وجدت نفسي مغلولا بحالة إدمان على التكثيف والتركيب والترميزالقصصي وبارتهاني الجمالي بالنص البلوري المتعدد المداخل والمفتوح على العديد من الأجناس الإبداعية والعديد من مستويات التأويل وقد كانت دهشتي أعظم حين تكشف لي أن كتابة فصل روائي أهون وأيسرعندي من تشكيل جملة قصصية مركزة مركبة ومكثفة تختزل في بنياتها الدالة جماليات العديد من الأجناس الإبداعية المحايثة من شعروتشكيل وموسيقى ونحت ..إلخ وبالتالي فإن العديد من أصدقائي القراء والنقاد من وجهوا لي اللوم إما بصمتهم أومن خلال مكاشفاتهم المباشرة وغيرالمباشرة على إفتتاني المفرط بباروكية اللغة ودسامة الصورة واستغراقي العميق في آليات الترميزوالتكثيف السردي ما كان سببا في إتلاف كل مفاتيح المداخل النقدية المفترضة في مجموعتي القصصية البكر(حروف الفقدان) .

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

أخيرا أتمنى أن يكون هذا العمل الروائي الأول قد أجاب عن الكثيرمن الأسئلة السردية والجمالية العالقة عند صديقاتي وأصدقائي الأدباء والقراء في المغرب والوطن العربي وأتمنى أن يحقق للجميع أويقات جميلة من الإمتاع والمؤانسة .

عبده حقي

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

هذه المتاهة الجميلة والمتفردة ..السحيقة .. كانت منذ أمد بعيد تركن في ثنايا ملغزة ماأزال أجهل انتماآتها الحقيقية ، كل ماأعلمه أنها زارتني ذات لحظة متلبسة بكل الألوان والأبعاد والسبل العنيدة التي قطعتها وحيدا مع الملائكة تارة والشياطين تارة أخرى...

كم يلزمني من الوقت كي أعبرهذا الزقاق من جديد ،إن مسافته أمامي لا تتعدى بضع عشرات من الأمتار ، ومع ذلك أخاله عميقا بمسافة نهرلاتنتهي .. بل حين أرقبه من كوة الجدارالمرتجلة في الأعلى ، يبدو هو الزمن كله .. ولكم تغبط نفسي نفسي كثيرا.. على هذا اللإحساس الباطني وأنا أنظرإلى الزقاق القديم يرفل في مسافته الأسطورية .. في امتلائه الباذخ...

من هنا بدأت ذات زمن ومن هنا قررت أن تكون البداية الآن ...

والآن أشعرأن دوامة يمورفي قامتها ضوء قيامي يغشي الأبصار.. مثل نافورة نورانية تتموج كي تنهمرباتجاهي لتجرفني إلى الداخل .. إلى متاهة الحكي , إلى حيث يدري القارئ وقد لا يدري السارد ...

كأن صوتا خافتا يستدرجني ... فمددت يدي ، ثم انغمس دراعي ثم خطوت في توجس ، فإذا بصعقة مغناطسية تشفط جسمي كله إلى أحشاء النورالقيامي ، وكانت البداية محروسة بليل أغسطس ، تحت حلقة قرميدية .. انخرمت ذات شتاء حيث كان بالإمكان أن أرى زرقة السماء يسقط من خلالها نورالصيف أورذاذ الشتاءات أومروق بعض طيور(أم حسون) القادمة من قاراتها المجهولة ، ولكم كنت أطمع في ملاحقتها ومصداقة تغريدات مناقيرها الصفراء ...

لقد سمعت النداءات في قرارتي مرات عديدة ، كانت في كل مرة ترجني ، تلطمني بقوة كأنما بقدح ماء بارد ، وكنت أتوقف كي أرنوأمامي إلى المسافة التي تتزيى بالسراب ، و كنت أشعركأنني قاهرلكل المسافات بل صارت هذه المسافات الإمتداد الطبيعي لجسدي .

حين كنت أرفع عيني أرى إطاراللوحة فاغرا فاه في كل النظرات الممهورة بالحسرة ، وكنت أتخيل تلك الدمعة المتلألئة تنزلق في توأدة على خد الطفل لتبوح بما يعتمل في النفس من مرارة . كنت دائما ألوم الجدارالمقابل للسداري عن خيانته وكنت دائما أسأله عن تلك اليد المتلفعة بغبارالسفر.. اليد التي دست اللوحة في حقيبتها بكل هدوء وانتشاء .. وغادرت المكان إلى غير رجعة ...

ـ اخرس ياعثمان ، ماذا كنت ستفعل بلوحة قديمة !!؟ هل كنت ستبيعها في البزارات مثل التحفة النادرة ؟!

كنت أنتفض ، أصرخ وأدك الأرض بقدمي وأضرب الجداربقبضاتي وأنا أصرخ بأعلى صوتي (لقد كانت هنا مطمئنة وآمنة في هذا المكان وعلى هذا المشجب ، فمن أوعزلرحال أن يقدمها للأهالي علامة دامغة على علاقة سلالية وشرعية ؟!)

وكثيرا ما كنت أتساءل هل كان بالإمكان أن أعثرعليها هنالك بعد رحلة قد لاتبدوآمنة في أغوارالمفازات والعواصف المزمجرة ..

ـ (حقا لقد كانت لوحتك رائعة) هكذا كانت تهمس لي أمي كلما لاحظت تلك الغيمة من الحزن في عيناي ، وكعادتها كانت تربت على كتفي وتضمني إلى صدرها الرؤوم وأخيرا تعدني بأن والدي سيعمل كلما في وسعه كي يسترجعها حين تتوأم الظروف لذلك .. ولم أكن لأثق بكلامها إذ كنت أعتبراستغفالها في ضياع اللوحة مثلما تتحلل أم من وليدها في منعطف ما بالمدينة...

ولكم كنت أغبط كل الذين عبروا من هذه الباب وخرجوا منها من دون أن يرنوا إلى هذا الجدارالذي مازال يتذكرلوحة كانت كالقلادة على صدره .. أولائك الذين تواطؤوا على اقتراف جرمهم وأنا لم أع بعد معنى أن يكون للإنسان لوحة بحجم هالة كل الماضي ، تختزل كل أبجدية الإنتماء ، وكل تشكلات الجذور وعشق أصول البدايات...

المعطف الرمادي المرقط بامربعات سوداء .. القميص الأبيض المفوف بتطاريزالأبجدية الجميلة .. الأنف المعقوف .. العينين الصغيرتين الرانيتين إلى الأعلى . حينما كنت أمربجانب الجدار، كنت أشعربانخطاف مباغث يطوح بي إلى خلاءات الغياب أو الموت الحقيقي ...

كنت أبحث في أشياء العالم حتى التافهة فيه ، وكنت أعثرعلى كل الأغراض سوى تلك اللوحة.. ولم أشعر إلاّوأنا أخطوحثيثا باتجاه الوالدة في المطبخ أو في السطح او في أي مكان آخر ، وما إن أبادرها بالسؤال

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

حتى تنفض يديها مما هي منشغلة فيه وأنا أقرؤعلى شفاهها عبارات الحسرة والتهدئة وتعدني مرة أخرى أن لوحتي سوف تعود إلى مكانها على الجدار.
دخلت إلى غرفتي ، اتكأت على حافة السداري ، كان الفراغ سيد المكان .. استدرت ، فصادفت المرآة هناك عمودية ، صامتة ترنوإلي .. بدت عميقة مثل بحر هادئ .. مثل سماء منذورة للخريف ... بدأت أتحسس أساريرالسحاب وتقاسيم التشكلات الهلامية ونتوءات الحروف البرانية ... وشعرت لأول مرة كم أنا في حاجة غريزية إلى لوحة صورتي الأولى التي كانت معلقة هناك على الجدار!
مازلت أذكر ذلك الصباح .. أيقظني الوالد باكرا قبل آذان الفجر ، كانت همساته نداءا بالأسماء ولم يكن أمر ايقاظي باكرا يوم الجمعة أمرغريبا عنا ، إذ تعودنا على ذلك منذ أن فتحنا عيوننا على هذا العالم ، كنا نعلم في المساء أن أجسادنا ستخوض معركة ساخنة في موقعة الحمام ضد الأدران التي تعلق بنا طيلة الأسبوع .. وأنه يده الرحبة ستقشرنا واحدا واحدا مثل البصل .
يوم جمعة .. يوم يبدأ لينتهي على الزي التقليدي الوطني والحلاقة رفيعة .. بدلات الجمعة البيضاء التي تنتظرنا على الرفوف .. البلغات المدفونة .. وأخيرا عطرالجمعة قبل أن تنفلت الخطوة الأولى إلى رحاب مسجد القبة .
كنا نسيرتارة إلى جانبه وتارة خلفه وقلما نسبقه .. نسيرونحن لاندري إلى أين .. وكانت هذه (الإلى أين) تشغل عقولنا في ذلك الصباح ... كنا نمشي خلفه وهو أمامنا يردد علينا دون أن يستديرإلى الخلف (احذروا بقع الطمي!!) كان دائما يسبقنا بقامته الفارهة العريضة.. جلبابه الطويل إلى خمص القدمين ، سبحته السوداء ، ودخان السيجارة يتراقص ويرتد إلى الخلف ، خيطا دخان سحري لايستقرعلى شكل ، ونحن أبدا منبهرين بهذه (الأين) التي تسحرنا فيه وتشغلنا ...
انحدرنا عبرالزقاق الضيق .. كنا متيقنين من أنه يرسم لكل واحد منا مشيته بكبرياء دون أن يمشي أمامه.
وصلنا إلى حانوت واطئ ، تتدلى عند بابه خيوط مشغولة من صدفات النهر، كانت تشكل ستارا شفيفا يسمح برؤية من وما بالداخل .
ــ السلام عليكم ...
ـ أهلا وسهلا ، مرحبا بمولاي ادريس ...
دلفت خلفه .. رائحة غريبة يعبق بها المكان وكان العجوزالشيخ عبدالكامل يعتمرعمامة على شكل شراع قديم .. لحية بيضاء منسدلة ومشذبة بعناية .. بشرة سمراء .. ضمني إليه بقوة وقبل ناصيتي، ثم نهرني أبي فيما يشبه التأنيب :(ألا تقبل يده ألعفريت ؟!)
كان الحانوت يشبه ضريحا متلبسا بكل الألوان الخابية والصورالقديمة والسبحات والكتب النفيسة...
اقتعد والدي كرسيا قصيرا واستند إلى الجدار، بينما سرحت أحدق في هذا الفضاء الغريب .. كان رأسي يلامس من الخلف إطارا لصورحروب قديمة .. إذ تبدوبعض الخيول فقدت قوائمها .. فارس يتأبط ساقه .. شيخ يمتطي أسدا مذعنا .. سيف علي ـ كرم الله وجهه ـ يقطردما .. سرب أحصنة ذوات أجنحة بيضاء ..
في الجانب المقابل صوربالأبيض والأسود ، وفي الركن تربض دعامة التصويرعلى ثلاثة قوائم خشبية يعلوها صندوق متزيى بثوب أسود. مازال الشيخ عبدالكامل ينفث الأدخنة العبقة الشهية ويسأل أبي عن أحوال العائلة والعمل وأخبارالتحريرفي الجنوب...
ــ أجل ادعوا أنهم أحرقوهم في الثكنة !!(قال وهو يوقد عود الكبريت) كانوا جميعا ببزاتهم الخضراء الداكنة .
ــ ومن خطط لعملية الإقتحام ؟!
ــ لقد تسللوا بواسطة حبال مدلاة من سورالقصبة إلى فناء الثكنة .
مسح الشيخ صدره باغتباط قائلا: وماذا بعد ؟
ــ تفحمت الجثث واندلقت منها سوائل متخثرة ودسمة ..!
ــ أظن أن تصعيد المقاومة يمكن أن يسرع بالجلاء والثورة قد اندلعت من الشمال إلى تخوم الجنوب من أجل عودة السلطان والعائلة الملكية من المنفى دون قيد أوشرط والإفراج عن كل المعتقلين ...

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

ـ لقد قام الإحتلال بمداهمة جميع الأكواخ والنواويل ، وأحرقوها ثم اعتقلوا كل من يدب على الأرض حتى القطط والكلاب لم تسلم من جرافاتهم ...و...و... واندهشوا لاستعداد المجاهدين التلقائي من أجل التضحية ...صمت مولاي ادريس ثم سأل الشيخ عبدالكامل الذي قام ليعد لوازم التصوير .

ـ والسي سلام ما هي أخباره ؟!

ـ لقد قضت المحكمة الفرنسية بإعدامه فجرا في جبل (النسر)

ـ وهل كان وحيدا ؟؟

ـ أجل .. بعد أن رابط جل الفدائيين إلى كهوف ومغارات جبل (النسر).

ما زلت أذكر، قام الشيخ عبدالكامل، أخذ ريشته القديمة .. سمعت بعض خضخضاتها في عمق الوعاء ، سحب من قمطرالمنضدة منديلا أبيض .. مسح زجاج نظارته .. تقدم نحوي ، كان أبي في تلك اللحظة يضبط مؤشرالراديوعلى صوت القاهرة . أقعدني الشيخ على الطابوري العالي وقال :

(الآن صرت رجلا ،.. ضع مرفقك على ركبتك وكفك تحت ذقنك) وفجأة أمسك بذقني الصغيروبحركة وديعة رفعه قليلا إلى الأعلى وقال :

حسنا .. الآن انظرإلى القمرهنالك .. نعم ، دائما أنظرباتجاه القمرفي اللوحة أمامك .

أخذ ريشته القديمة ، نفضها .. بعد برهة سمعته يقول :(باسم الله وعلى الله توكلنا .. لاتتحرك .. ركزبصرك نحو القمر..القمر.. سترى أنني سأشغل لك أجمل لوحة في زماننا.. وستفخربها أمام أقرانك عندما تكبر .. أليس كذلك يا مولاي ادريس ؟!)

لم يرد أبي ، إذ كان منشغلا بمؤشرالراديوالذي كان لايلتقط غيروشوشات وصفيرا وغنغنات...

أخرج الشيخ عبدالكامل بعض الأوراق الصفراء القديمة نقعها في الماء وعلقها على حبل بمقابض خشبية. طفق يتمعن حروفها ويتفحصها ...

كانت أجمل لوحة شغلها لي ، وكانت أكبرمما تخيلت ، حتى ظننت أنني خلقت من أجلها وأن الشيخ عبدالكامل لايمكن أن يكون غيربعدي الحقيقي .. جذري البعيد .. هناك في أوصال دوحتنا الوارفة .

استفقت ..ألفيت اللوحة على الجدار.. صورتي هي بعض من كلي بل لم أصدق يوما أنها سوف تصيركلا من بعضي .. بعضي الذي هوفي النهاية عين وريشة الشيخ عبد الكامل التي لا تخطئ ويده الواثقة من ايماءتها إشاراتها .. كنت أرنو إليها وأخمن أنني قد بدأت منها وأنني فيها سوف أنتهي ...

على الجدارأمام السداري ، كانت تحييني كل صباح فتعاودني الفكرة بأن العالم يمكن أن يتغيركله إلا هذه اللوحة . صرت لاأتخيل هذا البيت من دونها، قرب السارية ، كما أنني كنت متيقنا أنها هي بكل يقين لا تتخيل البيت بدوني...كانت تكلمني تكليما وكانت أمي تلمعها كلما همت بفتح النافذة وهي تغمغم بكلام ملغزكأنه وصيتها الأخيرة لها .

عدت يوما إلى حانوت الشيخ ، فألفيته موصدا ، من بعيد ألفيته موصدا ، ووسط قيامة الشارع شعرت باغتراب . قلت في نفسي (أيمكن أن يفعلها ، أوربما قد يكون سافرإلى قمرآخرفي سماء أخرى؟!)

دنوت ، كانت على الباب بعض التخاريم وعلى الشباك العالي نسيج عنكبوت.. ساورتني الظنون .. قرفصت على العتبة وطفقت أنتظرغيرأن الباب لم يفتح .. والشيخ عبدالكامل لم يعد.. ترددت عليه لأيام عديدة وفي كل يوم كنت انحدرفي الزقاق مسكونا بنداءات لوحته ، غيرمكترث بما يمورمن صخب وجلبة من حولي . . كنت حين أصل وأطرق بابه حانوته الأخضرالمرصع بدبابيس الذهب .. أختلس النظرة عبرالشقوق علني أتملى بطلعته في الداخل ، بيد أنني لم ألمح هنالك في القرارة غيرظلمة مهيبة وجليلة ودعامة رسمه المهجورة . ..

(عن أي سماء رحلت تبحث ياشيخي الجليل ، وكم يكفيني من الزمن كي أعثرعلى طيفك المهيب ، وأحظى بلمسة ريشتك على الرأس والجبين ؟)

(أيها الشيخ ،أخبرني لماذا نذرتني للوحتك ورحلت ؟!

ذات مساء حملت حافظتي ونزلت إلى النهر . كانت كل المراكب راسية على الرصيف الصخري تتعمد بشلال الشفق القاني ..وكان هناك على الرابية ثلة من الصيادين يلملمون شباكهم ويعدون لوازمهم للإبحار. أسرعت الخطى نحوالأدراج التي تفضي إلى قعرالنهر. نزلوا الواحد تلوالآخر إلى مركب ذي

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

أشرعة عريضة بيضاء وصواري سامقة.. وبدا لي أن هنالك شيخا يتحرك بينهم ، فخمنت أنه الشيخ عبدالكامل . وما إن طفقت أهتف بأسمه حتى كان المركب يمخرالنهرفي صمت وكانت وشوشات كلامهم الهامس تصلني بالكاد .

مرت الأيام كماهي العادة ، كنت أحيانا أتخلف على موعد الدراسة .. أنزل إلى النهر.. أرسم على الدفتر وجوها لشيوخ لاأعرفهم علني أظفربمعجزة جرة قلم عابرة بوجه الشيخ عبدالكامل حتى أرد دينه علي ، بيد أنني لم أفلح في رسم حتى تجعيدة واحد من طلعته البهية...

على الضفة الأخرى كانت هنالك لألأة تعاند ذؤابتها ظلمة المساء ، وبعض أصوات تمتجزبرقرقات المجادف وخريرالنهر .. فجأة وفي لحظة صفوعنت لي فكرة العبورإلى الضفة الأخرى ...

(آه .. آه .. ما أقساك أيها الشيخ .. ما أقساك أيها النهر.. كيف بي أن أعبرك وأنا لم أبرح بعد عتبتي الأولى ، هكذا تفعلها وترحل مثل آخرملاك في زمننا ، وتتركني لقسوة الغياب ؟!)

شعرت بوخزة برد وبرذاذ أيقظني من تيهاني .. قفزت من فوق الصخرة الملساء .. حملت حافظتي وعدت إلى الدار.

كانت أمي تهيئ العشاء في الركن قرب الدالية .. فجأة سمعت صوت الراديو ينبعث من الغرفة .. فأيقنت أن والدي هنالك يترقب أخبارالثامنة مساءا .. اختلقت كل الأعذارالبلقاء حتى لايوبخني عن تأخري .. لوعلم أبي بنزولي إلى النهرعند الغروب لأنبني ... بيد أنه كان الليلة منشغلا بأخبارالثامنة مساءأحيانا كان الراديورحيما بي ... كان بساط ريح يعبربوالدي سماوات العالم السبع .. يخترق ضباب لندن عبر (البي بي سي) وجغرافية الشرق العربي الملبدة بسحائب بارود حروب لاتنتهي عبر(صوت القاهرة) ... بت مسهدا ،.. لم يرحل غراب الأرق عن تعريشة العينين .. غمرتني نوبة إختلفت بين الحمى والرعاش البارد .. وكان صراخ عمتي (وردة) في الخرابة السفلية يصلني كبوق قيامة .. مبهما وغامضا .. محملا بأسرارالأرواح .

ـ (آه ، لو صمتت (وردة) .. لوطارت غربان الأرق .. لنعمت بوسنة لذيذة وهادئة ..!!.)

استدرت وهمست لأمي ، فقامت ودثرتني بغطاء ثان ، وربتت علي قليلا .. كانت آهات (وردة) مثل غزالة جريحة في الخرابة تصلني مروعة و محملة بأطياف الجن والموت الرهيب ..

(وردة).. عمتي العليلة.. كنا نخشى أن نلج خرابتها في السفلي تحت حاجزخشب الأرابيسك اتقاء الوقوع في مصيدة الجن الذي يسكنها ...

وكثيرا ما كان والدي يستيقظ في الهزيع الليلي ، فأراه يملؤ قدح الماء ويدخل إلى بيت (وردة).. عطش (وردة) كان جنوبيا .. لافحا .. جافا كامتدادات البيد..

جسد ممدد على تمزقات السريرالخشبي .. بعض آثارخدوش أظافرها على الجدارحين تشتد بها هزات الصرع وتعلوصراخاتها المتحشرجة .. يدخل والدي فيطعمها حساءا دافئا وماءا وأتساءل في حيرة من أمرها كلما خرج والدي من خرابتها سالما ...

(أين تختبئ العفاريت حين يدلف والدي إلى خرابة (وردة) ؟!.. ألا تراه جالسا على حافة سريرها الخشبي ؟! ومن أين يمرق الجن إلى تلافيف جسدها العليل ؟!)

كنت أتساءل دائما ، مساءا ..(ما لهذه العفاريت تهاب أبي حين يقتحم مملكتها المرصودة .. هل يدس تميمة واقية لانراها في زاوية ما من جسده تحميه كالدرع من رماح ولعنة العفاريت التي قد تطوح به في لحظة غضب إلى فلوات الثلث الخالي ...)

صريرالباب العريض .. عتمة العتبة .. أدفع الباب إلى الداخل ، ثم أمرق مثل طائروجل .. في عمق الظلمة ، فأخالني على الفناء قد نجوت من عثرة على جسد لامرئي أوشبح مارد يتمدد بالباب ..

من خرابة (وردة) .. مأوى الجنيات ، رأيت والدي يخرج . تمليت في هيأته كثيرا كيما أبصرعلامة نزال أوندبا شيطانيا... بيد أنني أراه مثلما عهدته وألفته دائما .. مثلما كان ومثلما سيبقى في ذاكرتي حتى بعد رحيله ..معاندا.. مقداما لايهاب الموت ...

ويتركني للغزالسؤال : (ما الذي يحدث هناك في الخرابة ، وكيف يحسم المعركة دائما لصالحه ..؟!)

(وردة) غزالة البراري تخورعلى سريرالوجع .. الفقيه الذي طالع (المحلة) رآى ما لايرى .. اليوم يوم

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

قيامة .. قال : رآى (وردة) تسكب في الليلة المقدسة ماءا قذرا في ملاذ الجن ! وأمرها بين يدي كبيرهم ..الذبيحة لازمة... صمتت (وردة) وخمد جسدها التائه في بيداء العطش والأوجاع ...
على الجداررأيت النعش منتصبا بقامة الموت .. (وردة) إذن رحلت !!
قلت في نفسي : انتهى زمن الجنيات ... ورغم ذلك لم أجرؤعلى اقتحام الخرابة في السفلي تحت حاجزخشب الأرابيسك...
ذات يوم سمعت نقرا على الباب .. تمليت الرجل طويلا : من يكون هذا القادم المتلفع بعبيرالواحات ... بوجهه المغموس في حمرة الشمس .. والشفتان المنشدختان ، الكتفان اللتان أثقلتهما عراجين التمر.. الكفان رحبتان ، تخبئان على إهابهما ميثاقا قديما مع المعول والقادوم .. عيناه الملبدتان بغيمة المأتم ... كان المنديل المشجربالطروزالحنائية الجنوبية يزحف على صفحة الوجه القمحي مثل سحابة حبلى بشآبيب الأحزان .. رحال هذا القادم على متن ناقلة (بلقايد)... رأيته يجهش بالبكاء وهو يعانق هذا وذاك ويمجد في ليلة التأبين(وردة).
أدركت أن رحال لم يكن غيرغصن من أغصانا الدوحة الجنوبية ...
لن أنسى جراباته المشغولة من ألياف الدوم ..كان يأتى بها مترعة بعبق الحناء العذراء وسلال تمورمختومة بشمع السعفات ...
وحين كان يتعذرعليه الرحيل كان بعض رسله يطرقون باب الدارالكبيرة محملين بأخباروحكايا عن (الواحة) على متن الناقلة المهترئة الوحيدة وقتئذ .
(وردة) كانت رحما يتضورعلى جمرات العقم .. وكان (حماد) زوجها وحشا ضاريا ينهش عمرها بسكاكين الكلام اللاذع ، ويعيرها بحسناوات (الواحة) الولودات ...
ولكم طافت (وردة) وتمسحت بكل حيطان الأضرحة المقدسة ، وذرفت شلالات الدمع الفوارفي كل المواسم بين رحلتي الشتاء والصيف..ونحرت العنزات السوداء على عتبات الأولياء.. وعقدت على أغصان شجرة (للاعيشة) المباركة المعزولة كل أطياف الخرق المنقوعة في السماق المسحور.
كان قفل الجسد عنيدا تأتي رياحه بما لا تشتهيه سفن الليالي .. زمننذ أطبقت على (الواحة) سنوات جذب .. طالما صدحت فيها الحناجرالعطشى بكل الابتهالات والتضرعات المنقوعة في الدموع ...
ولم تكن الساقية الضحلة الوحيدة كافية لانبجاس قطرات الرواء.. وكم كان (حماد) يتسلق أدراج النخلة العجفاء .. يرنوإلى أحواض الحناء والفصة المسربلة ببروق السراب وعلى الجهة الشمالية كانت تبدوتلال وكثبان الرمل الفاقع مثل دناصيرعملاقة جاثمة ، متربصة ب(الواحة)...
ذبلت آخرالنبتات ، حتى أضلاف الصبارالمرفوعة مثل أكف الضراعة ، ألقت بظلالها الممسوخة ... وكانت أحاديث البوابات عند الظهيرة والقناديل السهرانة على لفح القيظ وصينيات الشاي لا تشد عن كارثة الجفاف... فيما القليل من الأهالي من كان يخمد حمأة الصهد بأمطارلم تسقط إلاّ في سماء الأوهام.. وعن سنوات الجفاف والجوع الأسود الذي أتى على عشرات القبائل في الشمال ...
(حماد) وحده يخرج من جدب ليدخل في جدب : (هذه الجروة ! متى أتخلص من نباحها المسعور.. دبيبها المقرف على الأرض..) .
ذات ليلة عزم على الهجرة إلى (الغرب) .. ولم يكن (الغرب) غيرالوجهة الشمالية المثخنة بالسحائب خيرات الحضارة ... البحرية حيث يتمدد عقد المدن الراقية التي ترتع في مروج لاتنضب ، وتنهل من ليستفسرالعون عن أحوال (الغرب).. خيره أينما ترسوالناقلة الأسبوعية كان (حماد) يلاحقها وهومتله الوافر متاجره ومارشياته العصرية .. غوانيه ذوات البشرات المصقولة كقطع اللجين الأصيلة ... ثم ينساب الكلام في قرارته ناعما .. أحلاما تعرج ب(حماد) إلى أبهاء الفردوس ..
وكان لايستفيق من وهمه إلا على غبارکثيف تتركه الناقلة خلفها ، وطريقا محفوفا بالصباروشجيرات الشيح ، يرتفع شيئا فشيئا إلى أن يخترق حافة التل الكستنائي الموحش...
(حماد) وحده يرحل كل سبت إلى (الغرب) على جناح حديث العون المثخن برائحة (المازوت) ولكم لمح ل(وردة) بسياط الطلاق :(هنالك ـ مشيرا إلى جهة (الغرب) ـ هنالك سوف أرجع يوما مصطحبا (لالاّك)

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

وسوف تريننني كأميرشرقي .. يكفي فقط أن أن تملأ جيوبي بالنقود وأرتدي الكوستيم الأسود والقميص الأبيض المتختمة بالفراشة السوداء وألمع الحذاء مثل الأوروبيين...
أما (وردة) فقد كانت تلوذ بالصمت وتعقد الألم بنطاقها الأحمر.. ترفع عينيها إلى سمائها المخصوصة .. و في مرات عديدة كانت تغرق في صرعات اهتزازواصطخاب رجات فيتكورالزبد في زاوية الشفة ويفسد الدمع مجازات المرود المنقوع في الكحل المنير.. ويرتفع وترالشكوى حتى تسمعه الجارات وقد ينبلج الباب عن إحداهن على عجل متلفعة في خمارها الأسود وبين يديها مزيدا من جرعات أدواء الصبروخليطا من عصارة الأعشاب التي قد تحقن الرحم بحرارة التورم المشتهى ...
وسماء (الواحة) لم تمطر، وطريق(الغرب) موصدة بمتاريس وحراس ببنادق المكرالمعبأة برصاصات عيون زرق .
قال (حماد) في نفسه مشيرا إلى الطريق أمامه :هي ذات الطريق التي عبرخلاءاتها وأحراشها أجدادي منذ أوئل القرن .. وشيدوا في (الغرب) رياضات هي في الأصل طبعة ممسوخة للقصورعندنا في الواحة ...
ذات ليلة تسللت (وردة) من سريرالمهانة قبل أن يشرق على التل الرملي أول شعاع الفضيحة .. وشقت الطريق المتربة المنزوية إلى مدشر(البير) حيث هنالك الملجؤالآمن عند الشريفة (ايزة).
وموحشا استفاق (حماد) على صقيع غريب .. ضغط على زرمصباح يدوي ، فبدا له البيت لأول مرة خاليا ...ولأول مرة جعل يدرع كل الأركان وهويهسهس باسمها ! ولأول مرة أحس بالخواء وبفزع يحتوي المكان !..ولأول مرة أيضا أحس أنه ماكان ليستوحش نفسه لو كانت (وردة) راقدة يرفل السرير في أريج الحناء في ضفيرتها !.. ولأول مرة أخيرا برقت في فكره ومضات البروق الأولى ، فجأة تلفع بجوخه الرمادي وراح يفتش عنها في أرجاء (الواحة) ..
كان يحدق في العتمة ، ويسدد شعاع قنديله في كل الخبايا ، ثم جعل يطرق كل الأبواب كالمجنون ويهتف باسمها تحت الشرفات والنوافذ .. ثم اندفع يخورمثل ثورهائج منفلت للتومن دهليز... فبدت له عتمة العالم مثل دفة هائلة أغلقت في عينيه بفظاظة وسرعة . استند سورا حجريا مشرفا على الحافة وطفق يلتقط أنفاسه كأنما يلتقط أشياء ثمينة انفرطت فجأة في الظلام ، وأخيرا راح يمني النفس بالوثوق المخادع لرجوع (وردة)...
قالت (ايزة) ل(وردة) بغيظ منفوث :لا تكترثي بالأمركثيرا، لدي كل ما تحتاجينه وسوف أدبرلك أمرالسفر إلى (الغرب) خلسة .. صدقيني ، هذه ستكون هي الأخيرة ...
وردت (وردة):(كيف لي أن أقطع تلك القفارومن السيدة التي سوف ت...) وقاطعتها (ايزة) وهي تفتش في صندوقها القديم :(اصغي إلي جيدا .. سوف تتنكرين في جلباب وسلهام زوجي رحمه الله وتعتمرين بعمامته الصفراء وتستقلين الناقلة خفية .
ـ لكن قد يكشف الكريسون (العون) تنكري وتكون الفضيحة فضائح و...
ـ الأمر بسيط جدا ..جدا .. انفحيه بعض الدراهم وسوف يبلع لسانه ويدبرلك مقعدا مواريا عن عيون الوشاة (إنه يرى النقود ولا يرى الحافة !!)
وبدت (وردة) في نورالشمعة بملامح وقسمات ممهورة بالوجل والتردد وهام ذهنها في تبعات شائكة قد تلحق بها فضائح أكثرمما كابدته مع زوجها (حماد) . بيد أن (ايزة) عالجتها وعضدتها بجواب لاتحبك بلاغته سوى العجائزالمكيدات الداهيات...
كان عليها أن تمكث أربعة أيام إلى أن يحين يوم قدوم الناقلة وهويوم السوق الأسبوعي وشعرت بعد حين أن هول الفضيحة قد خفت وطأته وجعلت تهتم بأناقتها وتتعجل موعد الرحيل .
بدأت جلبة السوق ترتفع شيئا فشيئا مع انسياب النهار... إبل ، خيول ، ماعز ، خرفان (الدمان) بعض بقرات ضامرات،حميروبغال محملة بسلال وأكياس ومرضى وشيوخ واهنين وأطفال مدللين مزهوين بضفائر السعد ونساء متلفعات في حوائك سوداء ، لاتبدومنهن عدا عيونهن التي خبا بريقها وطفح عمشها الأصفربسبب رياح الشرقي الحامية المحملة بذرات الرمل اللاذع وأسراب الناموس والذباب

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

العنيد وكل الحشرات الطائرة... في يوم السوق الأسبوعي كنت لا تسمع سوى وقع صفيحات الحوافرعلى الطريق المتربة .. تثير الغبارفتزيد الجواختناقا وكحات حارة وجافة...
حين خلا المعبرالضيق ، انسلت (وردة) . كانت الناقلة المهترئة رابضة تحت افريزالسوق الظليل لم يحن بعد موعد الإنطلاق وفي غالب الأحوال كان السائق لايعود إلا حين يروق مزاجه بعشرات كؤوس الشاي الحارالمنعنع هنا وهناك تحت الخيام وفي الحوانيت الضيقة الواطئة وأينما خطا خطوة يلغط البدوبلقبه (بلقايد),وكانت حلقات الطواجين تحت الخيام المخرومة تفسح له صدرالمكان وتقدم له ألذ وأطيب وأنضج شرائح اللحم ... وكان لا يشغل المحرك إلاّ بعد أن يكون قد طاف بكل أرجاء السوق وخبربالشادة والفادة ورد على كل الأسئلة عن أحوال الأحباب في (الغرب) وعن أمطاره الوافرة وخيراته ومصانعه وإداراته وأحيائه العشوائية المفتوحة للنازحين والهاربين من شظف الجنوب وحرب الشمال...
ألفت (وردة) العون مقتعدا كرسيا قصيرا، مسندا ظهره على العجلة الأمامية ، فاسحا أزرارقميصه فبدت حبات العرق بين شعيرات زغب صدره الكث متلألأة ،.. وكان بين الحين والآخرينفث دخان سيجارته بضيق وتأفف كأنما يدخن فقط لتمريرالوقت الثقيل والصهد الضاغط ...
أحس باهتزازخفيف .. وضع كأس الشاي أرضا والتفت إلى ناحية الباب .. كانت (وردة) قد وضعت القدم الأولى على الدرج ودفعت بالرزمة داخل الناقلة..
ولما لم يحن بعد موعد الإياب ولما كان هذا القادم مبكرا أكثرمن العادة كل أسبوع ، فقد ارتاب في أمره وبادره بالسؤال :(ايه..ايه ، إلى أين ، ألا ترى أن الناقلة في وقت راحة ؟!) وتغافلت (وردة) عن الجواب وألقت بجسدها المتعب في المقاعد الخلفية وضمت الرزمة إلى بطنها فوق ركبتيها وخفضت رأسها وسوت العمامة على وجهها بشكل هوأقرب للقناع منه للثام . بيد أن العون لاحقها للتووانتصب متراخيا فوق رأسها :(يبدولي أنك لم تسمعني فهل أنت إنسان أخرس ، اليس كذلك ؟!) بيد أن (وردة) ظلت خافضة رأسها والرد يعتمل وينضغط في أعماقها مثل بالون يوشك على الإنفجار... كانت أنفاسها تستعربين جحيم الموقف وقيظ الظهيرة وشرارة عيون العون .. ولما رأت أنه لابد من تكشفها والبوح واعترافها .. فجأة انفجرت حدقتاها بالدمع واندفع الكلام دفعة واحدة وهي تفتش في تلافيف الرزمة عن كموسة النقود لترشي العون ببعض الدراهم متوسلة إليه أن يكتم السر.
تظاهرت بالخرس وتناومت ما استطاعت.. وغرقت الناقلة في الظلام والإهتزازات ... كانت الناقلة تصرمع كل رجة حتى ليخال الركاب أن هيكلها سينشطرإلى نصفين .. وهناك في الأفق الدامس كانت تتراقص ذؤابات الخيام والمداشرالبعيدة و بين الفينة وأخرى على نورالناقلة الخافت تنقشع أضلاف الصبارمثل تشكلات آدمية غرائبية برؤوس عديدة ... ولم تشعر(وردة) إلا وقد غفت فجأة على صريرالهيكل وهديرالمحرك الذي يتغيرشخيره كلما تغيرت سطيحة الطريق ...
اختفت إذن (وردة)!!
نسج أهالي مدشر(البير) روايات بين التشفي والشفقة.. (حماد) وحده كان يقتعد صعيدا صخريا على مشارف المسالك والشوابك الضيقة يترصد الأطياف القادمة.. وكثيرا ما كان يخمن كل قادم من بعيد أنه (وردة) :(لابد أنها سوف تعود.. لن تقدرأن على الذهاب بعيدا ...) كان يهمس لنفسه وتنفخ ريح الشوم الشرقية في دراعته فيبدومثل منطاد يخفق دائما في التحليق.
اختفت إذن (وردة)
مضت أيام .. ظلت العمة (ايزة) تتنصت لأحاديث السقاءات وكلام المسامرات حول موائد الشاي و(الكارطة) .ومثلما تنفخ الريح في شرارة بغابة يابسة فقد شبت إشاعة مقتل (وردة) بضربة قادوم على يد زوجها (حماد) وكثرالقيل والقال : فمن قائل أنه أقبرها في حوش بالبيت ، ومن قائل أنه دس سما في كأسها وألقى بها في بئرجافة بداخل البيت .. ومن قائل أن جثتها ما تزال هامدة في القرارة ولذلك جعلت تفوح منها رائحة النتانة وأنه لولاوجود رائحة جيفة لما حامت وتخاتلت بعض الذئاب والكلاب ليلا بالمكان منذ أيام ...
أما (حماد) فقد فطن لليد الخفية التي ضغطت على الزناد صوب رأسه وبهذه السرعة ...إنه ليس إلا العماري الذي يتنازع معه حول أحقية ملكية سبع نخلات على حدود جنانيهما ... وقد من عليه الزمن

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

بفرصة العمر ليعجل بايقاع غريمه في دهاليزالحبس ... ولم تكن القضية ذات أهمية بهذه الدرجة من الإنتقام ، إذ أن القضية في الأصل إصرارعلى موقفين متنافرين ، وإصرارقبل كل شيء على ربح المعركة مهما كلفهما الأمرمعا من مال وسنين وجهد وتطواف بين محاكم البلد ... والقضية أخيرا ثبات على رأي (طارت معزة)...

ومن طرائف أهالي الجنوب أن المداشرالبعيدة كانت تلقب المنطقة (الواحة) تفكها ب بواحة (طارت معزة) والحكاية أن شخصين رأيا يوما ذات يوم غرابا على صخرة ، فاردا جناحيه فظن أحدهما أنه عنزة سوداء ، ورغم أن رفيقه نفى أن تكون هنالك عنزة ولإقناعه رمى الغراب بحجروطارفعلا، فإن الرجل الثاني أصرعلى أنه عنزة طارت وانتهى الأمر... ومنذئذ اختلف رأي الأهالي بين منتصرلهذا الرأي وذاك حتى صارلكل واحد منهم عنزته التي تطيروعنزته التي لاتطير..وإذن فإن للعماري أيضا عنزته التي طارت وأنكرها حماد ، وقد أوشكا ذات يوم أن يحسما النازلة باقتسام النخلات وبيع غلة السابعة بالتناوب كل عام ، بيد أن العنزة طارت مرة أخرى حول من سيسبق لجني العراجين في ذات السنة ، ولم يكن احتكامهما لشيخ الواحة بحضورالشرفاء والأعيان والوجهاء والعدل الموثق وفقيه المسجد السي (الصادقي) وتتويج كل هذه المصالحات بنحرعنزة في وليمة عشاء كل هذا لم يكن كافيا لفض النزاع بالتراضي حيث ظلت (العنزة) طائرة !! وظل كل منهما يتحين الوقت للإيقاع بغريمه ، ولعل الدوربات على(حماد) هذه المرة .. فرائحة الجيفة تزكم الأنوف والجثة قد تكون بدأت في التفسخ ، واختفاء (وردة) منذ تسعة أيام قد شحذ ألسنة الجارات في الغدو والرواح ، وعلى جنب البئرأيضا وقد كن على هاوية العطالة وفي أحسن الأحوال اجترارما لفظه أزواجهن مما حصدوه من أخباربعد فض مبارزات (الضامة) المشحونة بألغازالتنابزوالتنبار.

ضاقت الواحة ب(حماد) ، فأينما توجه تقصفه النظرات الشزراء وهسهسات النميمة والهمزواللمزوكانت العمة (ايزة) تتعقب زحف العاصفة على بيته وتترقب لحظة انهيارالسقف على أم رأسه.. إذ هي لن تنسى ما حيت أنه كان بحق وحشا لا يكترث بأي شيء وأنه في حقيقة الأمركان عاقرا خلافا لما شاع بين الأهالي عن عقم (وردة) .. لكن من يصدق العمة (ايزة) ؟ فقد كانت ذات فراسة حادة وكم من مرة كشفت على بطن (وردة) وغرست أصابعها في عمق (البطن الصغيرة) وبعد جس وفحص سطحي تقول بنبرة وثوق زائد وللمرة الألف : سوف يصرخ مولودك يوما ما بين يدي هاته وسألملمه في القماط الأبيض .. رحماك يارب ... لو.. لو.. ت... ، لكن لاتتسرعي فباب السماء دائما مفتوح .

ذات فجر سمع ارتطام قوي .. كان حماد قد سحب الباب خلسة وتعثرفي حجركبير كان بمثابة درج لعتبة طينية ، فارتطم الباب من تلقاء نفسه بقوة حيث كان عليه أن يرافق حركته بيده إلى أن يبلغ الرتاج برفق ...

انحدرعبرالزقاق الطيني الضيق وكان يحدس أن ارتطام الباب خلفه سيكون سببا كافيا بأن يزرع كل الحيطان المجاورة عيونا وآذانا مترصدة . فجأة تدلى رأس(منانة) من الكوة الجانبية ثم عادت ودلفت إلى غرفة النوم وبايماءة من يدها أدرك زوجها أن الأمريتعلق بخروج (حماد) الذي لم يعتد أن يخرج في مثل هذا الوقت الباكروكان وهويهرول بخطى متوترة يسب ويلعن الأبواب وتمنى لوكانت كل بيوت الأرض بدون أبواب وظن أن كل العالم قد تواطأ ضده بما في ذلك باب بيته ... بيد أنه أقسم بأغلظ الأيمان وهويلتقط حجرا ثم يرمي به طابورا من رؤوس الصبارأن (وردة) سوف تعود بالشرع وسيكون له معها شأن آخرومع العماري والساحرة الشمطاء (ايزة) .

رست الناقلة بتوأدة وشخيرمتهالك في ساحة مترية يحفها جهة الجنوب سوربه بابين عريضين .. وكان يستلقي أسفل السوربعض المسافرين مستندين إلى حقائبهم ونعالهم وكان بعض الشحادين وأحد المجانين يتبول على حافة السوروقد عكس ضوء الناقلة رشيشه بوله الفائر.. وفي الركن هنالك كان طفل مقرفصا يتغوط وأمه منتصبة أمامه وضوء الناقلة الباهت كان كافيا كي يخلع عن كائنات هذه الساحة الليليين ستائرعوراتهم ما ظهرمنها وما بطن ...

(وردة) وحيدة .. وجلة .. تقاوم الوسن الثقيل .. دلفت الناقلة داخل مرآب دائري واسع ومظلم مثل كهف عميق .. وسرعان ما اندلعت رائحة (المازوت) بقوة وتسرب دخان أزرق عبر كل المنافذ والشقوق

والثقوب وبدا نافذا أكثرمن تحت الدواسات الثلاث ، وبدا أيضا أن (بلقايد) لم يعبأ بنوبات السعال الحادة التي فجرها الركاب دفعة واحدة ... أما (وردة) فلم تتأثربهذه القنبلة الغازية فقد كانت متقنعة بعمامتها الصفراء . فجأة صاح العون بصوت متهدج ومبحوح مضبوط على مقام الأرق والتعب ... (على سلامتكم ...)

خرجت (وردة) تتعثرفي تلابيب السلهام .. بدا ليل ساحة (لهديم) غريبا .. ليل محروس بأسوارتكللها نياشين فوانيس الحوانيت وغمزات المصابيح في النوافذ الضيقة تعبق بأنفاس الأريج الليلكي ونكهة أباريق القهوة التركية النفاذة التي تحملها نسائم الغبش عبردروب حومة (قبة السوق) الأنيسة ... ليل (لهديم) ليل الغرباء .. اقتعدت (وردة) أمام المرآب في انتظارأن ينبلج الفجرعن أول يوم بعاصمة (الغرب)...

اقتعدت رزمتها .. كان بدر(لهديم) يغرق رويدا رويدا في محيط الظلمات ثم في لحظة ألق باذخ تربع على عرش السور... وسمعت سقسة سنونو انفلتت من ثقب ما بالسور، وتذكرت أسوار(الواحة) وليلها الملغزالمغمور برعب الفراغ المطلق ونباح الكلاب وفحيح اللأفاعي القرطيطات وطنين اليعاسيب وصفيرياح الشوم ووعيد الرعود وسياط البروق الخافقة وجنازات النخلات الملفوفة في أكفان جائحة (البيوض) و(حماد) الوحش يعوي في أرجاء الدار(سوف ترين هنالك في الغرب سأعود يوما ما قادما (بلالاك) يكفي فقط أن ترن النقود في جيبي وأرتدي (الكوستيم) الأسود وألمع الحذاء مثل الفرنسيين...) ورحال ابن العمة (ايزة) ثعلب الكثبان المتقلبة يخلع نعله عند العتبة بعد أن يكون قد طرق الباب بحصاة ينادي على (وردة) كي يودعها سرا من أمه (ايزة)، وأسراره في غالب الأحوال وقائع يلفقها مقابل قطع رغيف ساخنة محشوة بلمسة السمن الحارثم يمرق إلى المنحدركي يواصل معارك الركض مع الأطفال على صهوات القصب وملاحقة الريح ...

رحال كان فتى لايكل وتعرف (وردة) أنه مغامرلاتستقرضفيرته اليمنى لحظة ولايدري متى وكيف يلجم روحه المغامرة ، وأيقنت (وردة) أنه لامحالة سيفاجؤها يوما بزيارته .. لابد أنه سيكبروسيتذكرها كلما مرعلى باب زقاق (المدوز)...كان يناديها ماما (وريدة) وكانت هي تناديه (حميميد) ولكم ضمته بقوة إلى صدرها وزرعت حلمتها في ثغره وكانت حلمتها سمراء كحبة حمص مقلية يتلهى بها ريثما ينام وكان يعلم بالعادة أن ثديها يابس وكانت هي من جانبها تتلذذ بدغدغات تلمضه التي تذكي فيها شهوة الأمومة ، بيد أن الزمان كان زمان جدب وقحط ، والسماء لم تزخ منذ سبع سنوات والأهالي يطاردون غمائم لاوقت لديها للمساومات ... وحماد مايزال يحرث في أرض يباب...

التحفت (وردة) حائكها الأسود ، لفته حول خصرها بنطاق مجدول أخضر .. أحست بعطش لافح فدلفت إلى مقهى عتيق على يمين المرآب وسمعت شخصان يتحدثان عن (الواحة) فعاودها الحنين وقلبها كاد ينفلت من شدة الخفقان .. غيرأنها ما فتئت أن كرعت الكأس خيطا واحدا ولما حدس النادل رغبتها في كأس ثانية ملأ قدحا طينيا مضمخا ببصمات القطران ووضعه أمامها على الكونتوارالخشبي ، وشربت ما استطاعت أن تطفئ به غلتها وكان شعاع الشمس وقتئذ قد اخترق شباك المقهى خلسة وضرب بنوره على الرفوف الموشحة بغلالة الأدخنة والغبار، اثرئذ فكرت (وردة) أن الوقت قد حان كي تخرج للبحث عن منزل المولى ادريس ...

رحلت (وردة) إذن..!

رحلت في يوم ما .. يوما كان منقوشا على مرمرالأحزان.. بين حيطان الخرابة الآيلة للسقوط .. سنوات للأنين ونوبات العصاب الحادة .. كنت أتوهم حيوانا خرافيا ، شرسا يفترس جسدها العليل ... لحظة أطللت من نافذة المراح ألفيت وجهها مثل ليمونة دهستها عجلة طانشة ، وكدت أجزم أن للتنين أيادي تشوه قسمات الله في وجهها الأنوس ... ورحال كبروكبربسرعة ، أتى متأخرا بعد أعوام .. عانق أبي بقوة وحرارة وذرف الدموع على كتفه مثل طفل ثم انهارتماما حتى خلت أنه لبى نداءها ولحق بها إلى العالم الآخر...

كنت أرنوإلى المأتم من على ممشى الطابق العلوي وأسوي بصري بين التواءات حاجزخشب الأرابيسك .. النساء تدلفن إلى غرفة المغسل واحدة تلوى الأخرى .. ثم فجأة تدوي الصيحة المنقوعة في الدمع

والنواح والعناقات الحزينة... ولكم سمعت كلاما كثيرا ليلتئذ عن (حماد) الذي كانت قد صدرت في حقه مذكرة بحث من طرف دائرة الدرك في (الواحة) ، وسمعت رحال يهمس لخالي أن ثلاثة من رجال الدرك مدججين بالمسدسات المعبأة بالرصاص الحي ، اقتحموا بيت (حماد) وتتبعوا مصدرالرائحة النتنة وعثروا بالفعل على جثة، إذ لم يكن أمرالرائحة تلك وهما أو ضربا من تصعيد النازلة وإذكاء نارالإنتقام بل حدثا واقعيا بعد أن وقفوا في غرفة مهجورة في الطابق العلوي على جثة امرأة ، جثة كانت نصف عارية ، مستلقية على حصير الحنبل المزركش . وبعد أن رسمت المشاهد التوثيقية من كل زاوية ، أزيحت الجثة إلى المعبرالخشبي الذي يفضي إلى الأدراج السلفى ثم إلى البهوالسفلي ، فتبين من خلال المعاينات الأولى أن سبب الوفاة قد يتعلق بعملية خنق ،غيرأن النقيب مراد الراجي أكد أن العنق لا يحمل آثارعنف وفي تلك اللحظة تقدم عون السلطة وأزاح من الركن المعتم كيسين من التمروسحب إلى الخلف قلة مملوءة شعيرا وثلاثة أكياس حناء وكانت المفاجأة حين عثرعلى جحر، فلوح للنقيب مراد الراجي وقال فيما يشبه الصراخ : جحر ..جحر!! ثم أردف أجل جحر فأرة ـ ايوا ـ أوومن بعد أشنوالعمل ؟!

ـ لا ، لا ألسي مراد جحرأفعى قرطيطة ونحن البدوأدرى بمآوي كل مخلوقات الله الطائرة والزاحفة والعاشبة واللاحمة ... ولو كان جحرفأرة لكانت فوهته أوسع قليلا حتى تتمكن من المروق بخفة ويسرفي حالة المطاردة ثم ياسيدي ليس بالمكان ما يغري الفئران على الإستيطان...

فقاطعه النقيب ثم انحنى قليلا ليتأكد من صحة كلام العون وأوقدعود كبريت وضم كفيه على شكل مصباح يدوي وسدد نوره إلى فوهة الجحروبعد برهة استوى واقفا ومن خلال ملامح وجهه بدا أن الأمرتافه جدا نادى العون على شخص آخروقال للنقيب :هذا هو(الزربان) الذي كنت قد تحدثت معك في شأن إتقانه لكنس آبارالقصر... إنه يعلم ما تسروما تعلن الجحور .. وكان (الزربان) في مقدمة الفضوليين عند عتبة الغرفة .. وهوشخص أقرب إلى المتهورمنه إلى المقدام العاقل ... كان لايخلومكان في (الواحة) من دون أن يبصم فيه بحافريه الحافيتين وأينما حللت تجده كما لوأنه ريح توجد في كل أرض الله ... وقد كان فيما مضى على وشك أن يعين عون سلطة لروحه المذعانة وقابليته على السمع والطاعة لعلية الأهالي وحرافيشهم ،غيرأن تلعثمه المشوب بخبل طفيف جعلت القايد يعدل عن قراره تحت ضغط غضب الأهالي ...

وما إن أمره النقيب حتى انبطح بسرعة على بطنه وأولج دراعه كاملا في جوف الجحرمن دون تردد أو خوف غيرأن النقيب انزعج وركله بمقدمة جزمته قائلا : (أتكعد) أتريد أن تلحق بالجثة الأولى وتغرق بنا سفينة البحث والتحري؟! ونهض(الزربان) وأومأ له المقدم بغمزة (معيقة) وحركة طفيفة بيده ، فخرج (الزربان) إلى المعبرالخشبي ثم نادى عليه ثانية ودلف خافضا رأسه وهمس في أذنه ، فنزل (الزربان) الأدراج قفزا وسمعوا فجأة حنحنة أسفل الأدراج وكان (العماري) ببطنه المتدلي صاعدا ينفث أنفاسه مثل ثورنافروتوقف بالدرج الرابع في المستوى الذي يجعله يرى كل شئ ولا يرى منه الآخرون سوى رأسه وقال دون استأذان :

(ألشاف) يعني نقيب الدرك ـ منذ أكثرمن شهروهذه الرائحة النتنة تزكمنا ولكم نبهت الأهالي إلى أن الأمرلايتعلق بجيفة حيوان خصوصا أننا أدرى بشعاب (الواحة) وما ينكمن في مخابئها من أسرار .. واختفاء (وردة) منذ مدة قد أجج نيران الشك حول مقتلها وكنا لا نشك في ذلك ـ والتفت إلى العون وأردف ـ وها قد صدقت رؤيتي أليس كذلك ياعباد الله !!؟...

ثم ارتقى درجا آخروبدا كما لوأنه سيتوقف ثانية ، بيد أنه ارتقى الدرج الموالي فلاحت له الجثة كاملة ، فخفض رأسه في خجل وانبهاربالغين وكأنه استفاق فجأة من كابوس وكان إحساسه في العمق مشحونا باغتباط وخيبة عارمتين متلازمتين ، فغريمه (حماد) كان يلعب على حبل بين الماء وبين النارو هو كان من دون شك سيقع في المصيدة يوما ما وهاهوقد وقع فيها أخيرا، وطفق يتملى ويتفرس وجه الضحية الهامدة واحتدت أمارات الإستغراب على محياه وقال : أين (وردة) باسم الله الرحمان الرحيم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؟! وحدق ثانية بإمعان في وجه الضحية الملقاة على الأرض وأشارإلى الوشمين على الجبهة بين الحاجبين الدقيقين تحديدا وتحت الذفن والتفت إلى النقيب وقال :(ألشاف .. ألشاف) هذا الوشم وبهذه (الزواقة) مالوف لدى أهالي قبيلة (آيت أدرار) هنالك على الحدود بين (إكلي) الشرقية

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

وواحتنا والأهالي عندنا كما يعلم الجميع يحرمون الوشم أبا عن جد طبقا لتعاليمنا الدينية ، هذه امرأة غريبة عنا ـ وخفض بصره استحياءا وتمتم ـ (هاذي نعم أسيدي امرة حاشاك عا ...آ..آ..!)
رنا إليه النقيب بامتعاض وتقززوكان على دراية تامة بقضية (طارت معزة) بينه وبين حماد ولذلك لم يحفل بكلامه حيث أن إفادة العدوضد العدولاتجوز...
أخرج النقيب علبة سجائر(لمارلبورو) من جيب بزته الرمادية ، أخذ سيجارة وعرض على زميله أخرى .. أولعا معا بعود كبريت واحد.. مجا نفساعميقا ونفثاه مثنى في انسجام .. نظرأحدهما للآخروبدا أنهما على رأي واحد وفتح النقيب ملفا أسود وسجل بخط فرنسي ركيك ، لولبي .. ثم أغلق الملف بسرعة وقال لزميله : من الأجدى أن نعاين الضحية مرة ثانية حتى لانترك ثغرة في ملفنا فيما سياتي من التحقيق!)
ورد زميله بنبرة استخفاف :
ـ وما جدوى ذلك .. الذي قد كان .. كان ... ولاتنسى أن مسافة العودة إلى المركزفي (قصرالسوق) شاقة وطويلة .
قال النقيب وهو يفتل خيط جزمته العالية :
ـ قد يساعدنا على تعميق التحري عن إضافات ندعم بها المحضر...
أردف زميله :
ـ طبعا، لكن بهذا قد نتطاول على اختصاصات الطبيب الشرعي ... أرى أن مهمتنا قد انتهت بالوقوف على جثة الضحية والموقع وتحريرالمحضر بتجرد تام ...
ثم نادى على المقدم ووبعض الشهود وأمرهم أن يوقعوا أسفل الملف . ففعلوا .. قال له الدركي للمقدم ساخرا : لقد مللت يالمقدم من (حشرة الأربعة والأربعين) هاته ـ يعني توقيع المقدم ... أولم تفكرفي إبتكارتوقيع أجمل من هذه الحشرة ؟!
ونادى على شخصين آخرين فاندفع (العماري) غيرأن المقدم نهره ، فتراجع حسيرا ، مكسوف الطلعة ونادى مكانه على شخص آخر، شخصا كان أعشى .. عيناه ضيقتان .. اندلق من زاويتيهما شحم المرهم الرخيص وكان على ما يبدويعاني من عدوى (الرمد الحبيبي).. كان المسكين يسحب خطواته بتثاقل كأنما يتأكد من سلامة موطئه ... لطخ الدركي إبهام الرجل الأعشى بحبر(الخاتم) الأحمروبصم أسفل المحضر .. اثرئذ هم الدركيان بالخروج فتدافع الأهالي على الأدراج وتعثربعضهم في أقدام البعض وخرجوا إلى زقاق (المدوز) ... بعد تشميع البيت أمرالنقيب مراد الراجي بحراسة البيت إلى حين حضورالطبيب الشرعي من المستشفى المركزي بالمدينة في اليوم الموالي ...
زعقت عجلتا سيارة (اللاوندروفر) الخلفيتان وأثارتا زوبعة من الغباروالحصى وانطلقت في المسلك المترب ..تهتزوتتمايل وتتلافى المطبات ونتوءات الطوب ..والأهالي يلاحقونها بنظراتهم و(اللاندروفر) تتقافزوتنط .. وفي لحظة إختفت عند المنحدرثم ظهرت ثانية على كاهل التل إلى أن غابت في الأفق البعيد بين جنائن النخل المهجورالذي أتى عليه مرض (البيوض) ... كانت الشمس تنقع وقتئذ قدميها في موجات الكثبان الحامية وتسدد أقواس نبالها الحمراء باتجاه أسوار(الواحة)... قال العماري وهو يهرش أذنه اليمنى بعود الدومة :
ـ آلمقدم هذه أكبرالكبائر !! ماذا ستقول عنا المداشروالقصوروالدواويرفي الأسواق ولمات الجنائزوالأعراس والغدووالرواح إلى السوق ... ليس أفضع من فضائح الفساد .. اللهم لطفك يارب .. ألم أقل لكم أن (حماد) كان يتظاهربالحزن والكمد وحتى الخباط على اختفاء (وردة) وأن رائحة الجيفة تقوى عندما نعبرزقاق (المدوز) ثم ـ اممم ـ ثم لماذا لم تخبرالدرك عن اختفاء (وردة) .. ألم تشغلك (وردة) مثلنا .. أين المسكينة (وردة) .؟! وكيف أتى هذا الوغد الفاسق بهذه الجيفة الادمية لكي تفرخ أوغادا لقطاء مثله وتدنس دوحة واحتنا...
صمت المقدم برهة ثم أجاب بهدوء ووثوق طافح بوقاره المعهود :
ـ اسمع أولدي ، كان من الأليق ألاأجيبك ، لكن الرد عليك بات واجبا علي بحضورالجماعة ثم إنك قد ألبستني جلابة أضيق من قامتي وقد تشرد يا العماري في (طارت معزة) أخرى مع المخزن والمخزن

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

واعرالله ينجينا ونجيك منو... اسمع إن اختفاء (وردة) لايعني بالدرجة الأولى سوى (حماد) ومادام أن المعني بالأمر- بعلها - لم يبلغ الدرك في دائرة (الواحة) فهذا أمريهمه وحده لاغيره ...
فقاطعه (العماري) ملتفتا إلى الجماعة : أيها السادة كلنا معنيون باختفائها فهي ورقة من دوحتنا وكيف نسكت عن هذا المصاب الجلل .. وتابع المقدم كلامه ، أما فيما يخص المرأة الضحية فإن المخزن دارشغلوثم لابد أن تفضي التحريات إلى العثورعلى (وردة) والجاني (حماد) وتقديم كل منهما للعدالة
كنت تائها في دوامة المأتم .. صمت الشاهدة ودلوالماء الساخن ، ماء السماوات المترقرق على تجاعيد العتبة ينساب مغمورا بنفحة تراب المقابر...
أنفاس مجللة بعطرالقيامة ...
كمياء مشغولة من نسغ دوحة الخلود ...
(وردة) رحلت إذن !!
(وردة) تعض على ندفة غمامة عمياء أخطأت دربها إلى أكمات عطشى...
باب مشرع على المطلق الأزرق.. (وردة) بين الأرض والسماء مرفوعة بسواعد تشمرعلى ايماءات الوداع...
هي ذي خرابتها ... صندوقها الخشبي المطرزالمشروخ .. أعشاب للرقاد وأعشاب أخرى لتأجيل الآلام .. قدح الماء المقطرن .. إناء حسائها الأخير .. عباءتها الخضراء .. قلادة النقرة بوصلة لجنائن العراجين وساعتها عقربان أنهكهما أرق السنين...
خدوش أوجاعها على الجدار ..
متاعها لغة تستعيربلاغتها من كتاب الوصايا الحكيمة ...
دلفت الخرابة وحدي متوجسا .. السلهام والعمامة ..علامتان لحكاية معلقة على مسمارينغرزفي خصر الطريق ...
عاد رحال وأبي وزمرة من المشيعين .. كان السفلي غاصا بالنساء ورجال الحومة يصعدون إلى الطابق العلوي .. الليلة تنعتق هلاميات البخورمن أصفاد الشياطين .. وتنفلت من شفاه اللحي التي تشرق بماء الورد تراتيل محفوفة بوقارالأنبياء...
أخي عمريطوف بغلاي الماء الدافئ .. وعمي يضخ ماء الزهرمن المرشة الفضية .. والفوقي يعبق بأريج هوكمياء لتآصررشيش المرشة وأبخرة المجمرة المكية ...
عبدالناصريهيئ براريد الشاي المنعنع الحارويمجد أحواض حقول (الزيتون) ومرابع (وجه العروس) الخضراء وفراديس الترعات .. العم يصفف الفناجين المطرزة بالوشم المرموزعلى الصينية النحاسية العتيقة ، ثم يطوف اثرئذ بصحون كعكة (الغريبية) وفصوص (الفقاص) .
الليل يزحف بتوأدة.. وقد لاحت في عيون المقرئين والمنشدين حاجتهم للعشاء.. بعد برهة نفذت نكهة قصعات الكسكس الفوارإلى الغرفة ... توزع الحضوربين ثلاث موائد .. لمحت الغلاي عند الدفة القريبة من عبدالناصرينفث بخاره بقوة حتى اندلقت ديدان مائية برؤوس زجاجية كالدبابيس ...
وعلى العتبة تراكمت البلغات والنعال والصناديل إلى أدراج السطح .. وكنت ألهوبانتعالها .. فتغرق قدماي في جوفها .. أدخل قدما في بلغة وقدما في حذاء واليمنى في اليسرى واليسرى في اليمنى .. وأخطوعلى معبرحاجزالأرابيسك مترنحا ..أستند للحائط العالي حين أوشك على السقوط .. فينهرني والدي وقد يهزني بغلظة ويرفعني في غضب إلى الأعلى فتخرج قدماي من نعاليها بيسرويحط بي على جانب الحاجز..
أشرئب بصعوبة إلى الأسفل فأرى رؤوس النسوة من فوق تعبرن المراح الفسيح من غرفة إلى أخرى ومن شباك الحاجزأراهن مشغولاتة بصوان وكؤوس وأطباق وقصاع .. لغط مشوب باصطفاق الملاعق .. فحيح الغلاي .. ثم طست وصابون ونشافة.. والخرابة مقفولة ... توهمت أنها ما تزال آهلة بأرواح تتلوآيها وتعزف على مزاميرالشياطين.. ثم ماذا أيضا؟! عتمتها من نافذة المراح أقوى من عتمات الدهاليز.. هل سترحل الجنيات الليلة يا أبي ؟! وهل ستتطهرالخرابة من ماء القذارة كما تماهت الحكاية على صفحة السماق الكستنائي في قعر(محلة) لشيخ العرافين؟
رحلت (وردة) إذن !!

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

انتهت طقوس المأتم ... صباح آخريبزغ من ستائرالليل ..صباح يدشن طقسه بسبايا الغمائم تجرها أحصنة ريح نافرة ... تبدوالسماء من عراء (الحلقة) مثل بحرتمخره مراكب السحب باتجاه أبعد من الريح... فتتهاوى أوراق الدالية اليابسة على المراح الفسيح ... كل شيء أمامي كان يوحي بنهاية ما ... ألفيت والدي قد تزيى بجلبابه الأخضر.. حدست أنه سيخرج .. تشبثت بتلابيب جلبابه وارتجلت البكاء .. بعد إلحاحي واستعطاف أمي ورحال.. وافق أخيرا، لكن على مضض .!

كان رحال يحمل حقيبته البنية ذات قفلين صدئين ويد منخلعة ، مثبتة بسلك نحاسي .. سبقتهما لنزول الأدراج بفرح باد في خفة حركاتي .. نزلت بتوجس مخافة أن يتحايلاعلي ويختفيان عني عبرالباب الخلفي...

استقلينا(الكوتشي) .. إقتعد أبي جنب الحوذي بينما اقتعدنا ـ رحال وأنا ـ على الكرسي الخلفي العريض تحت سقيفة جلدية خفيضة ، محفوفة بحواشي نواويش قزحية تشبه نواويش قبعة بابا الكراب (الكراب) الذي شغلت هيأة وقفته الأسطورية الباذخة أمام بوابة (المنصور) كل التذكارات السياحية ...

جذب الحوذي العنان ، فاندفع الحصانان إلى الأمام .. ارتج (الكوتشي).. قوة الجرأوقعتني على الحقيبة أمامي .. قال لي رحال:(أيوة كن رجلا .. كن رجلا ..) فتشبثت به وأنا أرقب أبي الذي ألفيته قد انخرط مع الحوذي كأنهما صديقين قديمين ، في حديث لم نتبين فحواه بسبب خبطات صفيحات الحوافرعلى الإسفلت بقوة ..

خبطات على ايقاع واحد، اثنين، واحد، اثنين ... كانت تردد صداها أسوارشارع المولى إسماعيل... مازلت متشبثا برحال .. مسح بيده الصلدة على رأسي وقال لي :

ـ أتعرف ما معنى أن تكون رجلا ؟!

أجبت ببساطة :

ـ أجل ياعمي ، معناه أن أقتحم ديجورخرابة (وردة) وحدي مثلما كان يفعل والدي .. وأحارب عفاريتها اللامرئيين هناك من دون خوف...

فرد علي ضاحكا :

ـ لا..لا..أن تكون رجلا معناه ألاتبكي حين تسقط أويسقطك أحد ما في أية طريق...

فجأة زل حافرالحصان على الإسفلت .. رفع الحوذي سياطه ولوح به في الهواء وفجأة سمعت فرقعة على ظهرأحد الحصانين فركض ركضا مسعورا هلعت له كثيرا وقلت لرحال :

ـ عمي .. عمي .. هل تبكي الأحصنة في بلدنا ؟!

فرد عليّ بجواب مشوب بسخرية مبطنة :

ـ لا..لا .. الأحصنة لاتبكي ...

ـ لماذا ؟

ـ لسبب بسيط يا بني ، لأن لها نزوعا غريزيا للإباء والكبرياء ولهذا لايتجمع لها دمع في الأحداق...

ـ عمي .. أرجوك اشتري لي حصانا عندما تعود من (الواحة).

انفجررحال ضاحكا مرة أخرى حتى إلتفت إليه والدي والحوذي ، وأردفت :

ـ أنظر، ألا ترى أنني قد صرت رجلا ، ألم ترصورتي على لوحة الشيخ عبد الكامل في غرفة الفوقي ؟!

وما كدت أنهي كلامي حتى رأيته يشيح بوجهه إلى أكمة غابة (الشباب) وبدا لي كما لوأنه ينطوي على سرما وضم الحقيبة إلى صدره بقوة من غيرداعي لتلك الحركة ... قال :

ـ أجل ، أجل لقد رأيتها ، حقا إنها لوحة رائعة جدا .. جدا.. أخبرني لي من علمك أن ترفع رأسك بهذا الإعتزازفي اللوحة ؟ قلت بزهو زائد :

ـ الشيخ عبد الكامل، صديق والدي .. هكذا علّمني في ورشته .. رفع ذقني قليلا وقال لي انظرهنالك إلى الأفق البعيد .. إلى حيث يتربع القمر .. ففعلت لكن بصعوبة .

صمت قليلا ورأيت والدي يمد ذراعيه إلى الأمام ويصوبهما على شكل بندقية وهمية وخمنت أنه يتحدث عن حرب عالمية لم أدروقتذاك هل وقعت أم هي كانت قادمة ... ثم طفقت أرنوإلى قفا الحصانين وأذنيهما المنتصبتين الحادتين .. والريح تهفهف ضفيرتهما الملساء الناعمة .. وأتسمع إلى دقات قوائمهما التي

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

ترددها الأسوار.. رقصة حصانين أم رقصة رجلين لست أدري من منهما كان يركض ـ الحصانان أم والدي والحوذي ؟!
عبرنا شارع المولى إسماعيل المطل على حدائق الحبول المعلقة والشرفات المشرعة على الجنائن السفلى .. حدائق غناء مثل سمفونية لاتخرسها عوادي الزمن .. فردوس الأزل حيث تختال الغزلان في مروج (العين الصافية) وتتصادح عصافيرالخطاطيف فوق عرش باب (بوعماير) .
(لهديم) ساحتنا الأكورية ، ورحابة أسطورية بقامة دهشة لاتحدها حدود .. خطاطيف مشاكسة لرؤوس العابرين ..ولقلاق السورالعالي ، حارس الساحة المزمن، يحرس في برجه تاريخا عن أسرى غابرين ماتزال تشرق سلاسلهم في دهاليزحبس (قارى)...
توقف(الكوتشي) .. الناقلات هنا وهنالك .. ودعنا رحال ...
فتح النافذة .. نفحني خمسين سنتا .. ربت على كتفي وقال:(إياك أن تنسى العهد الذي بيننا .. كن رجلا...)
اشتريت قطعة (كرواسن) صباحية ساخنة محشوة بالشوكلاطة .. التهمتها على عجل ..ثم صعدنا زقاق (سيد النجار).. إثرئذ مرق طفل من باب متلبس بألواح قصديرية قد كانت في الأصل علب وأوعية للزيت وأوعية أخرى كانت لها علامة يدان متصافحتان ...
كان الطفل يعدو..في يده اسفنجة وأطلت أمه تلعنه من كوة بالسفلي .. وفجأة لاحقه شاوش يحمل محفظة وكان يترنح وعيناه متورمتان .. قرمزيتان.. ساقاه خائرتان .. بزته منفوشة.. وبين شفتية عقب سيجار، ورغم كل هذا الفوضى في هيأته فقد بدا متعجلا وغيرمكترث بما هوعليه وفيه... انتزع السيجارمن يد الطفل وقال له :
ـ سأعلمك لعبة ممتعة إنها أكلة الغول ..أولج أصبعه في ثقب الإسفنجة ثم أخرجها من الجهة الأخرى ...
قال الطفل : طززعليك لعبة قديمة تعلمتها في الدار... لدي أمي أصدقاء كبارتقول لي دائما هم أخوالي وأعمامي وهم مثلك ، كلهم يحلمون بالسيجارالطويل ووطواجين أمي وينفحونني بسيطات وأحيانا ريالات عندما ينتهون من أكل الشواية . وعقب الشاوش : (وأنا أيضا هل تريدني أن أكون صديقا لك ؟.) و أجاب الطفل (أجل ولكن ليس قبل أن تنصرف وتدوّرمعايا ..)
كلام الطفل أوعزلي أن أشتري اسفنجة غيرأن والدي رفض بدعوى أن سفناج درب (سيد النجار) يدعك العجينة بقدميه ويشاع عنه أنه مصاب بداء السل وفوق هذا وذاك لايصلي الفجرفي مسجد (سيدي عمر).
كان علينا معا أن نعرج على الشارع العلوي وننزل منحدرا مرصوصا بأحجارصلدة صقيلة حيث يوجد حانوت الشيخ عبدالكامل في (قبة السوق) . قلت لوالدي : (ألاترى إنه يشبهك كثيرا ...) فرد علي (بل هويشبه أكثرجدي (بالمختار) ، ومع ذلك فلا علاقة قرابة بينهما وكثيرمن الناس يعتقدون ذلك !) وكان جد والدي قد قضى في اشتباك مع فيلق من جنود الإحتلال في ملحمة من ملاحم نهرالجنوب .

0-0-0-0-0-0-0-0

ـ أمازال القمرهنالك في الأفق ؟.. والفارس يتأبط ساقه المبتورة ويضرب بسيفه أعناق العفاريت ؟!
صعدت الأدراج رأسا إلى الغرفة .. كان والدي يهمس لأمي شيئا ما ، أمرا بدا جادا وهاما جدا...
عمروزينب ما زالايغطان في نومهما في (المصرية) .. اقتعدت أرضا .. أسندت ظهري على السداري .. رنوت إلى الجدار .. مكثت مشدوها .. كان الجدارأمامي أشبه بسقطة في هاوية لاقرارة لها !! رأيت الجدارأم رآني الجدار..حملقت فيه كثيرا فألفيته غريبا عني !! فجأة نزت دمعتان في عيني .. رباه .. رباه ماذا حدث ؟! وتصادى في رأسي كلام رحال (كن رجلا.. كن رجلا).. ألفيت مشجب لوحتي شاغرا.. أجل شاغرا مثل مشجب إعدام .. شاغرا .. مثل .. مثل ماذا ... مثل العدم .!
فراغ عميق سرح فيه بصري مثل سفرة في مجهول .. كيف اختفت لوحة صورتي .. وكيف توارى القمرفي الأفق .. وغاب الفارس الذي يتأبط ساقه.. وكتيبة الخيول الجامحة.. لوحتي.. يد الشيخ عبدالكامل الذي رفع رأسي إلى الأعلى وقال لي (لاتتململ ابق هكذا مرفوع الرأس !)

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

صرخت من حيث لم أدري وبكل ماتجمع في صدري من نفس حتى استفاق عمروزينب .. أشرفت على المراح واستمريت في الصراخ ..
اللوحة !!
اللوحة !! صعد والدي مهرولا ، دخل الغرفة .. رفعني بين دراعيه وقال:
ـ مهلا، مهلا.. ورأيته أكثرإندهاشا وروعا مني .. لم يصدق هوأيضا .. مسح الجداربعينيه يمنة ويسرة ... التفت إلى عمروزينب .. كانا متكئين على حاجزخشب الأرابيسك ، زينب تنظرإلى والدي يؤرجحني ويهدئني ، أما عمرفقد أدارظهره وكان يشرف على المراح .. يتلهى بورقة دالية ويترقب صعود أمي ... أجلسني والدي على السداري .. دخلت زينب .. شرعت تفتش بين المخابئ والفجوات وتحت الأغطية وتحت طاولات السداير..
قال والدي حانقا : كيف إختفت اللوحة وهل اختطفتها العفاريت ؟! لقد كانت بالأمس في مكانها هنا.. هنا .. معلقة على مشجبها المعلوم .. نعم لقد رأيتها بأم عيني وأنا أخدم الطلبة والمنشدين ثم إن رحال قد أسرلي حين قدمت له طست الغسل أن الأهالي في (الواحة) يرغبون في رؤية حفدتهم في (الغرب)
وعيناه وقتئذ كانتا مسمرتين على إطاراللوحة ... قال عمروهو مازال على هيأته السابقة :
ـ لقد لاحظته هذا الصباح يتملى فيها كثيرا وكاد أن ينبس لي بسرما غيرأنه أحجم عن ذلك لما دخلت أمي :
ـ وهل كنا سنتنازل له عنها لو رغب في ذلك ؟ ـ صاحت أمي من المراح ـ استدارعمروتقدم قدرثلاث خطوات من والدي وقال :
ـ ألا يمكن أن تكون قد سقطت في قبّ أحد المنشدين ؟!
ضحكت زينب ونهره والدي قائلا :
ـ ألا يمكن أن تكون قد سقطت على أم رأسك .. أنت دائما وكما هي عادتك تخلط الجد بالهزل ، أغرب عن وجهي ، أخرج .. أخرج للزنقة .
قلت وأنا مستلق على ظهري في السداري ويداي خلف رأسي:
ـ ماذا عساه أن يفعل بها رحال أوالمنشدون أوحتى العفاريت ؟!. قالت أمي :
ـ أذكرأن رحال كان يرغب في أن يرافقة عثمان إلى الجنوب .
وعقب والدي باستغراب جلي :
ـ أفهم من كلامك أنه قد يكون دس اللوحة في الحقيبة خلسة .. واختفى!
ـ ربما .. ربما والعلم لله!
ـ وما العمل الآن ، ربما يكون أخذها بدعوى أنه في مقدورنا أن نعود إلى حانوت الشيخ عبدالكامل ليشغل له لوحة لصورة ثانية ...
خبطت بقدماي كثيرا على الزليج وصرخت .. بكيت.. صرخت .. بكيت .. حتى تقطعت أنفاسي وهتفت :
ـ لن أقبل بأي صورة أخرى ما حييت غيرصورة في حانوت الشيخ عبد الكامل!
وانتفضت انتفاض الطائرالمجروح ..عدوت إلى البيت المجاور.. جعلت أقلب كل الأشياء في الصوان وصناديق الأغراض القديمة وألقي بها على الأرض .. أغلقت علي الباب بمزلاج عريض .. ضغطت على زرالنور بفردة حذائي .. وضعت على المائدة كرسيا .. صعدت السداري ووطأت على حافة الطاولة ، فمالت ووقعت أرضا ثم انقلب الكرسي فجأة ووقع بدوره على رأسي ... وانفجرت نوبة أخرى من صراخي وعويلي وحشرجاتي وامتدت في أعماقي حتى انقطعت آخرأنفاسي واستعرفي حنجرتي تهدج قاتل وطفقت أضرب بقدمي من شدة الألم والسعال . .. كان والدي وأخواي يخبطون بقوة على الباب وكنت أسمع في زوبعة الدوخة ويلات أمي صاعدة عبرالأدراج وزينب تضرب على ركبتيها (أويلي شنودارفراسو)... نزل
عمروأتى ببراغي .. سمعت طرقات وضربات على دفتي الباب .. اهتزت الدفتان وفجأة اخترق رأس البراغي الفجوة بينهما ودفع والدي قفل المزلاج إلى الداخل ، فانخلع بدرجة يسرت له أن يرج الدفتان مرة أخرى ليسقط المزلاج على الأرض ، وانهمرعلى وجهي نورالحلقة ثم اندفعت أمي وتلقفتني بين

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

دراعيها وبدربة بالغة ألقتني على ظهرها فأحسست على التوبهدنة غريبة كانت بردا وسلاما على دمغتي ...

نزلت بي الأدراج إلى الكشينة (المطبخ) .. نزعت فلارهتا ولملمت رأسي جيدا وأحكمت اللملمة بأنشوطة شديدة وفي تلك اللحظة تناهى إلي صوت جارتنا حليمة من خلف سورسطحها تستفسرعن سرهذه الجلبة في دارنا وصرالباب صريرا مسرعا فلاحت أمي (رقية) قادمة بخطى مهرولة إلى الكشينة وهي تستغفرالله وتحوقل ، وبعد هنيهة صرالباب من جديد فدخلت أمي (حليمة) البدينة بصدرها الواسع الذي يتسع لتوأمين وردفيها المكتنزتين وابنتها خديجة تتشعبط بتلابيب قفطانها ، كانت زينب تعيد تصفيف الصوان وصناديق الخزائن ووالدي كعادته كلما حل ببيتنا ضيوف يخرج ليبتاع ربطة النعناع وشايا وسكر(القالب) ولم يكن زمنئذ غيرالقلب من ماركة (النمر) وكنا لانشرب في الدارالكبيرة إلا الكأس المعدة بقالب (النمر) وكثيرا ما كنت أتساءل عن سرعلاقة السكرو(النمر) واهتديت مرة إلى أن عسل قوالب السكرالخالص لا يظفربحلاوتها إلا الفرسان النمورالصناديد !

نزلت زينب لتهيئ صينية الشاي أما أنا فقد غفوت على صدرجارتنا حليمة العريض واستعذبت النوم على رخاوته ...

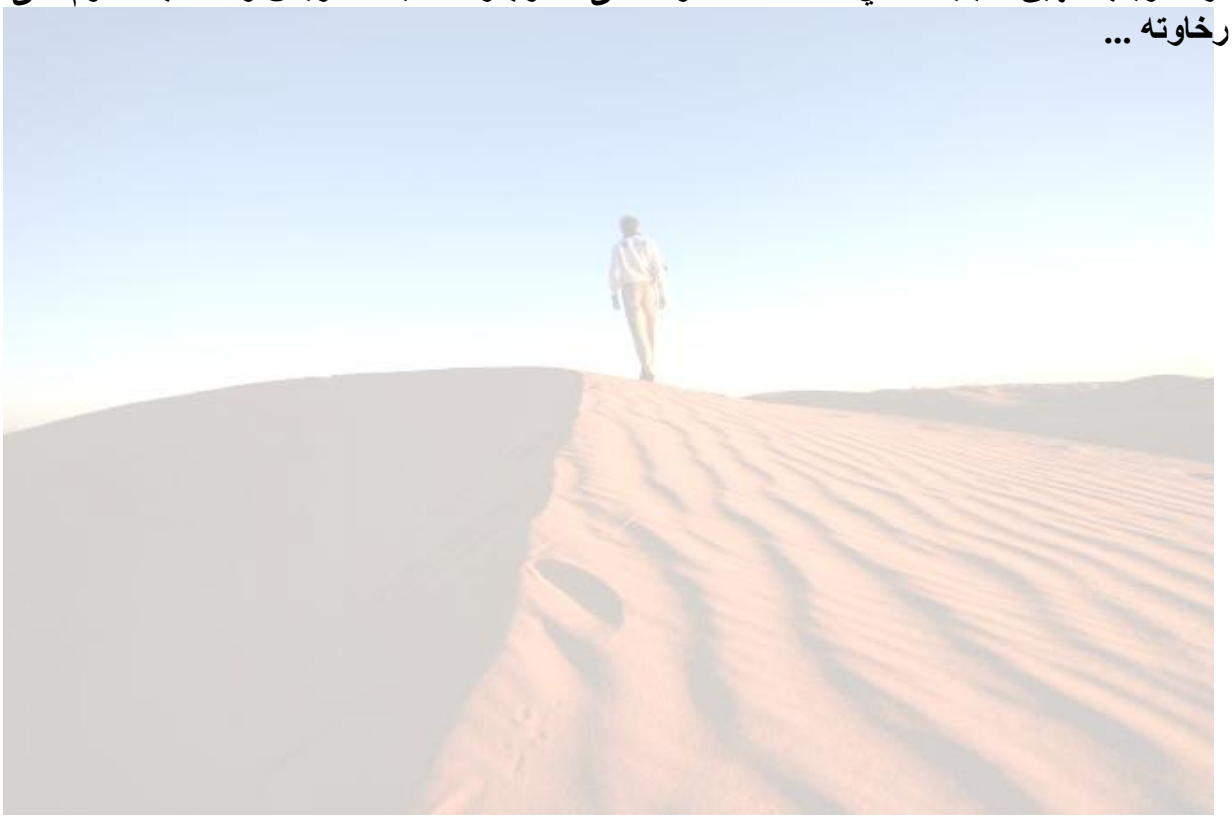

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

عبأ الزرهوني غليونه (السبسي) .. مج نفسا عميقا حتى غارشدقاه وصاروجهه بقسمات كاريكاتورية وأرسل طلقة دخان عبق برائحة الكيف على قفص (أم قنين) مايعرف في خلق الطيرعند العرب (أم حسون) ثم قدم لمولاي ادريس (السبسي) .. مج هذا بدوره مجات متتالية ، كانت ثلاث أوأربع على أكثرتقديروكافية لإفراغ (الشقف) من حشوة (الكيف) ، ودعك ما طفح من الرماد بسبابته التي انطمست واصفرت بصمتها من كثرة الضغط على جمرات (السبسي) ورد على الزرهوني : أجل لقد سافررحال هذا الصباح .. المسافة كما تعلم نصف يوم وقد يصل وقت العصرتقريبا .

ـ وهل قدم وحده من (الواحة) ؟

ـ نعم ، وكما تعلم كلما طالت المسافة ارتفع سعرالتذكرة والأهالي يعانون من تبعات الجفاف وآفة (البيوض) وكلهم باتويرغبون في النزوح إلى المدينة ولقد حكى لنا أول أمس أنه شاهد بعض القوافل على الطريق تلوح للناقلة ومنهم من كان يرعى قطعان الإبل وخرفان (الدمان) نازحا نحوالشمال وسوف ترى لامحالة بعد بضعة شهورطلائعهم في مراتع (عين لوح) وضفتي (بوفكران) ، بل قد سمعت أيضا بمن هاجروا شرقا إلى الجزائرعبرتندوف وبشار.

أخذ الزرهوني إبريق القهوة من رف النافذة .. صب نصف كأس (حياتي) ذلك ميثاق السري والعلني بين الكأس ونسغ الحياة .. كلاهما منذورللآخر .. للحياة نهرها الذي تنهل منه الكأس الشفيفة ـ رشف مولاي ادريس دكة بطرف شفتيه .. وطأ الزرهوني على دواسة (المدراز) ودفع بالعمود الأفقي .. مرق (النزق) ... على إيقاع (مكرمفرمقبل مدبر) .. واستمرالزرهوني يدوس و(النزق) في رقصته ، بقصيدته المتنبية نشوانا ، وفصول الله تنموعلى مرابع الحايك ومولاي ادريس يعبئ الغلايين والدكات تتوالى والمعركة في الحانوت منذورة للنصرسلفا وكما هي العادة ... يتوقف الزرهوني ليدخن ويدك رحيق الشاي وينفث أبخرة (الكيف) على عصفور(أم قنين) ، قال مولاي ادريس: ربما أخذ معه لوحة عثمان من دون أن يستشيرنا في الأمرلقد فتشنا عنها في الشرق والغرب ولم نعثرعليها وأخيرا إقتنعنا أن رحال هوصاحب هذه الفعلة ، أرأيت سذاجة هؤلاء الأهالي ، إنهم لايقدرون تواشج وعمق علاقاتنا مع أشيائنا الحميمية مهما صغرت أم كبرت قيمتها وشأنها ولقد تركت ورائي جنازة ثانية في البيت هذا الصباح .. فما العمل كي أقنع عثمان بالصبروهو قد أصرعلى ألا يأخذ صورة غيرصورته التي شغلها الشيخ عبد الكامل في ورشته . ترشف الزرهوني دكة صائتة وقال : حقا الكثيرمن البدوعلى سجية واحدة ... الكثيرمنهم لايكترثون بزينة أكواخهم ونواويلهم وأثاثهم المنزلية مثلنا في المدينة ... ترى البعض منهم يرقدون على أسرة النقود وقلما يفكرون يوما تغييرالقدرالمحموم الذي ورثوه عن أسلافهم وأنت حين تدخل إلى نوالة أحدهم تحسب كأنك ما تزال في العراء ... إذن فماذا تنتظرمن شخص مثل رحال يفكربعقل تصفرفي أجوائه الرياح الأربع ؟! أما سمعت بالبدوي الذي قدم كومة تبن لسيارة القايد معتقدا أنها دابة شمالية !! انفجرمولاي ادريس ضاحكا وخبط بكفه على المنضدة الإسمنتية وفجأة انزلقت قدم الزرهوني من على الدواسة وكاد أن يقع تحت (المدراز) لولا أنه مسك بالعمد المنتصب وقال (والله هذا زمن العجب العجاب !! ولهذا لم تعذرت عمليات توزيع الأراضي على صغارالفلاحين ... ولقد سمعت أن قبيلة (بوعمام) قاطعوا العملية وتجرؤوا على رشق ممثلي السلطة المحلية بالحجارة بدعوى أن الأراضي وزعت بالمحسوبية والرشوة والتزلف للشيخ ، وأن سيئ الحظ من لم يدفع وكان محظوظا فقد حصل على بقعة متورمة بالصخوروطريحة على حافة التل ولاتصلح إلا لتكون مقبرة أومزبلة ...)

طاب مزاج مولاي ادريس واستراق بما يكفي من نشوق (طابا) و(الكيف) وخشبة (النزق) ما فتئت تكروتفرعلى حلبة الحايك ..

مادت الأرض من تحت قدميه وخال أنه نسي (وردة) ولوحة عثمان لبعض الوقت على الأقل وكما هي العادة كلما حاقت به صروف الدهريلوذ إلى حانوت الزرهوني وبعد صمت لم تشغله غيرضربات المدرازوعلى حين غرة سأله بلسان مشوب بقليل من العي بفعل جرعات (الكيف) القوية والنفاذة : قل لي هل يمكن أن يفعلها رحال ويسطوبهذه السهولة على لوحة عثمان ؟! فأجاب الزرهوني :

ـ في رأيي هذا ليس سطوا ...

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

ـ وما عساه أن يكون ؟! مستغربا
ـ إنه في رأيي نوع من ارجاع شئ إلى مكانه الطبيعي ، أعني إعادة نبتة إلى تربها الملائمة أفلا تقبلون بذلك !!؟.
ـ لكن لوافترضنا أنه سطا عليها بهذه الطريقة التي تثيرالشفقة أكثرمن الإمتعاض ، ترى لماذا ولمن ستصلح لوحة صماء وبكماء لصبي صغير؟! ودفع الزرهوني وقتئذ عمود (النزق) أماما ثم سحبه إلى بطنه وأحدث ضربات آلية برجله اليمنى كانت على ايقاع (مكرمفرمقبل مدبر) ... وأردف مولاي ادريس :
ـ أخبرني رحال أن الأهالي في (الواحة) مشتاقون بل متعطشون لرؤية حفدتهم هنا في المدينة ... وهذه من دون شك رغبة مشروعة وطبيعية ، لكنها على كل حال ليست مبررا ليسطورحال على لوحة صارت في نظرعثمان ماضيه ومستقبله وعموما أقرب إليه من ظله وقد أقسم لأمه أن ليس هناك إنسان على وجه الأرض بقادرعلى أن يسوي لوحة بالفتنة والحذق الأصيل الذي أبدعها به الشيخ عبد الكامل .
أجاب الزرهوني :
ـ سمعت أنه يوجد في المدينة الجديدة (حمرية) روميا يجيد التصويربآلات عصرية كهربائية وفي سرعة أقل من ريشة الشيخ عبدالكامل القديمة .
وأردف على الفور:
ـ ولكن حاجتنا للسرعة فأيام الله طويلة والأهم في نهاية المطاف أننا كلنا حاملون لصورة ما نتمنى أن تكون هي صورتنا الحقيقية ، ثم إن كل من عليها فان ... وهذه الماكينات الرومية الجديدة لم تجلب لنا غيرالمسخ واللآفات العظيمة ...
وأجابه مولاي إدريس بنبرة بين القلق والإرتياح :
ـ لا.. لا .. ليست كل الآلات شروليست كلها خيروقبل هذا التاريخ كنا نتمرغ من الرأس إلى أخمص القدمين في الأوحال وما كنا لننعم بهذا الشانطي والسيارات والقطاروالناقلات والسينما والراديووآخرهم (هذ صندوق العجب) الذي يسمونه التلفزة !! ... وعلى كل حال فأنا أرى أن أشقى وأتعس أيامي أعيشها الآن ... ألاتتفق معي كيف أن (البركة) طارت .. أنظرإلى لفائف الحياك والجلابيب التي تكدسها يوما بعد يوم على رفوفك يا (الشبيهي).. لقد طحنتنا هذه الآلة الرومية وكساد صناعتنا التقليدية يلوح في الأفق بكل يقين ... أجبني من بمقدوره اليوم أن يوفرسنتيما واحدا لدوايرالزمان ؟ أما فيما يخص هذه (البلية) هذه العشبة اللعينة فإن المروق على (الصراط) صارأيسرعندي من الوصول إليها فعشرات الباراجات (حواجزالتفتيش) تنموكالفطركل يوم وليلة بين مكناس وكتامة ... وأردف بما يشبه الحسرة المشفوعة بزفرة عميقة (عمّر..عمّر، شي شقف .. واشعل ذاك الراديو... راه هذا وقت أم كلثوم ... أمّا بوشعيب البيضاوي الله يرحمه ...)
انتابتني حمى مرتفعة ورعاش قوي ، كان الورم يؤلمني حينما أطرح رأسي على مسند ما، مخدة أوركبة أوصدرا حنونا .. ومع ذلك كنت أحسه ألذ الآلام على الإطلاق .. أصدح الآلام حين يصمت .. ألذها حين يستفيق .. أقوى الآلام التي رسمتها لوحتي التي هربتها يد ما في غفلة مني .. كانت أمي تبلسم ورمي بأوراق شجرة (السوسان) المختالة في مراح دارأمّي (رقية) التي كانت تقايضها ندف الصوف بورق الشجرة (السوسان) التي تصلح لتلطيف الحمى ... وأنا ممدا في فناء الداركنت أحسبني في بيداء من ثلج بها مغارات لثعالب ذات فراء بيضاء وقبورعميقة تتمدد فيها جثث تشبهني .. عشرات الجثث تشبهني ... أسمع همس أمي تبسمل وهي تنفخ على جمرة الشبة البيضاء التي تحولت إلى عين بوم مفقوءة ... ذات العين اللعينة الميدوزية التي أسقمتني وشلت حركتي في الدار..
الفقيه السي العربي في حانوته الضيق ، الواطئ .. يتكورفي ركنه المرصود .. زلافة سماق أمامه .. يراعات من قصب البساتين المأهولة بالجنيات ..ألواح الذكرالتي تضمربين ثنايا أبجدياتها سحرالبيان ... خط السي الفقيه العربي بيده المعقوفة على البيضة وصفة حكيمة وشكلا لطلسم راجم .. لف على عنقي خيطا أحمرلتميمة... وهمس لأمي (هذه الرقية على الصدروهذه مع مخلوط الأعشاب ...)

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

مضى يومان .. لم يخفض عقرب الحمى ذيله .. وأخلفت بلاغة البيضة المخطوطة بوعدها ... بت أهذي وأنمق كلاما مخبولا ... خمنت (رقية) أن مسّا ما قد سكنني .. فالرعاش انتفاض لروح لم تبرح المكان .. كان على المرتلين ليلة التأبين أن يقرؤوا سورة (الفلق) قبل دعاء الختم ...

هل كان في اللوحة سرغيبي يذرؤعن جسدي مكرالشياطين ؟!

أطلت (مي حليمة) من سورسطحها وصاحت (هوذا ديكي الأسود ، انحريه بين قدميه واغمسي كفيه في دمه الساخن قبل أن تنطفئ منه جذوة الحياة ...)

مساء الجمعة .. مساء لكل البياضات التي تشرق بأنوارالفردوس المفقود ... سماؤها تتجلى بها أعتاب الرحمان الرحيم ...

مددتني أمي تحت الدالية .. دثرتني بلحاف بنفسجي خفيف .. قارورة ماء الورد قرب رأسي . بصمة قطران لليقظة على أرنبة الأنف وشراب الأعشاب المعتق ...

كنت أراقب أوراق الدالية الصفراء وهي تتهاوى وتتهفهف على لحافي البنفسجي .. فأسمع وشوشاتها المقرفة حين أتململ فتكبرفي أعماقي الآلام ...

قالت زينب : أمي أخشى أن يكون قد أصابه ذات المس الذي أصاب المرحومة (وردة) !!

اغتاظت أمي وانتفضت وقذفتها بشربيلها وصرخت : فأل نحس ، أعود بالله من الشيطان الرجيم .

هرولت زينب إلى الفوقي وشرعت تنظرإليها من خلال حاجزالأرابيسك الخشبي.

بعدهنيهة صرالباب وها خالي المهدي يدخل وصاحت زينب من الفوقي: (أمي خالي..خالي.. خالي المهدي) وقفت ولملمت تلابيب قفطانها حول خصرها وشمرت على ساعديها بخيط مطاط أبيض .

وضع المهدي المحفظة والحقيبة وقفزت زينب بين دراعيه .. عانقها واستدار بها دورتين في الهواء وقال بصوت عال (كبرت يا الشيطانة) واستغرب لرقادي في المراح تحت الدالية ، إذ اعتاد كلما عاد من كلية الآداب والعلوم الإنسانية عشية يوم الجمعة أن يراني في الزقاق بين عدو وتقافز ومعاكسة الأطفال الغرباء والتحرش بقطط الجيران ...

أخبرته أمي بما حدث .. لم يستغرب كما كانت تتوقع حين علم أن سبب حماي وسقمي هو اختفاء صورتي من جدارالغرفة وكادت أن تنعته ب (قاسي القلب) لولا أنه انحنى وقبلني .. فشممت رائحة دخان ناقلة العاصمة الذي ما زال عالقا ببذلته وتذكرت رحال وناقلة الجنوب وتذكرت معه أيضا لازمته (كن رجلا) .. قال : (لاباس..لاباس وأخرج من جيب حافظته علبة بيسكوي (هنريس) . أزاح اللحاف البنفسجي عن صدري قليلا .. مسك بكفي وقال لإمي بامتعاض وغضب مستشيط : وماهذه الجوطية حول رأسه ؟!

أرسلت زفرة وشبكت يديها خلف ظهرها وقالت :

ـ مرة أخرى وككل جمعة تعود بنا إلى دروسك الفلسفية !

ـ أجل ، أجل الفلسفة هي الخبزوالماء والهواء الذي نتنفسه جميعا دون وعي بذلك .. والفلسفة هي الدواء الذي عالج شعوب أوربا كاملة من سرطان الجهل وبراثين التخلف...

وردت أمي في حنق :

ـ وبماذا سيعالج المشفى جسدا تسكنه قيامة صورته المسلوبة .. لقد بات عثمان يهذي هذه الليلة عن الصورة ورحال والمرحومة (وردة) فهل ستبرؤه أقراص (الكالمين) من علته ، لقد أكد لنا الفقيه السي العربي أن عثمان سيتعافى بعد ثلاثة أيام حين ينفلت الجن من جسده ...

وضرب المهدي بقبضة يديه على ظهرمحفظته وقال بغضب واضح :

ـ وفي ماذا أفادت التعاويذ والرقى والمحلة المرحومة (وردة) قبل عثمان هل استرجعت رشدها وأعتقت جسدها من مكابداتها مع الوحش (حماد)؟! هذه ـ و دنا منها وربت على كتفها بلطف وأردف ـ هذه الحالة يا أختي تسمى في علوم الطب نوبات نفسية تلزمها جلسات منتظمة مع دكتورأخصاءي وبعض أقراص مهدئة وأنا متأكد جدا أن هذه الحمى عابرة وهي جاءت نتيجة توترحاد شبيه بحالة شخص يلاحق

ظله من دون أن يظفريوما بالقبض عليه ، وهذا بالضبط ما حدث لعثمان وصورته وسوء تعاملكم معه ساهم في توريم أزمته النفسية .. فهل فهمت الآن أهداف فلسفة (كلية الآداب) ؟
وردت أمي بنبرة هادئة :
ـ استغفرالله واتق شر(مالين لمكان).. ثم إننا في ظهيرة يوم جمعة وعلينا أن نتقي بطش العفاريت .
ـ صحيح ، (جنونكم) لأن الفراغ الذي يسف هنا في هذا البيت المرهب بمتاهاته وسراديبه ودياجيره الخلفية كاف كي يطلق عنان استيهاماتكم للبحث عن علاتها الواهية وأسبابها الباطلة التي تمسخ إلى شياطين وعفاريت ... اسمعي يا أختي غدا سآخده إلى المشفى الرئيسي ، هناك أعرف ممرضا رئيسيا درس معي في صف الإعدادي وسترين ـ انشاء الله ـ كيف أن عثمان سيعود قادما مرحا على رجليه ...
ردت أمي بنوع من الإطمئنان :
ـ انشاء الله ، وأنت أخبرني كيف حالك مع (تازوفريت) والرباط وصداع لقراية ، أومازال تالف مع بنات الجامعة ؟
قال المهدي باسخفاف :
ـ الجامعة دائما هي هي ، عموما حياة لازدراد البيض بأشكال متعددة ... مسلوق وبالطماطم ونصف طايب وفي كثيرمن الأحيان فاسدا يطفوعلى صفحة الماء .
ـ تعلم أن تسلق البطاطس إداملت من سلق البيض... سمعت أنكم تتناولون وجبات راقية في مطعم الجامعة وبأبخس الأسعارورغم ذلك فالطلبة (راسهم سخون) يفضلون وجبات الشعارات على صحون لافتات التحريض والتمرد لأتفه الأسباب على ملء بطونهم والشبع وحمد الله ... لقد كنت عنيدا ياأخي المهدي ، فلكم نبهتك وحثثتك الوادة رحمها الله على تعلم الطبخ ... غيرأنك ككل جمعة ها أنت تعود إلينا لتعزف لي نشيدك المألوف عن أزمة الفلسفة وعن يوميات الهراوات في باحة الجامعة ...و كثيرا ما نصحتك الوالدة قبل أن تودع هذه الدنيا أن تبحث لك عن (شدق خبز) وتطلب السلامة وليس العلم في الجامعة وأعتقد أنك ماتزال تذكرمواجهات الدارالبيضاء وحالة الإستثناء قبل سنين ...
فجأة أحس المهدي بألم في كاحله حين قرفص لخلع حذائه ، وساء ظن أمي به إذ خمنت أن السبب قد يتعلق بمطاردة بين قوات التدخل السريع وطلاب الكلية .. ودون أن يرفع رأسه خمن بدوره أنها ستبادره بالسؤال غيرأنه قاطعها قبل أن تنبس بأي كلمة وقال بأن التوعك حصل حين زلت قدمه على صخرة معدنية ناتئة في رحلة دراسية لحقل ب (تيمحضيت) خلال رحلة دراسية جيولوجية وطلب من زينب ما تبقى من ماء دافئ في الغلاي كي يدلك كاحله ...
فاح أريج النعناع بقوة ، و نفذ كأنفاس عدنية إلى المراح ... وانفجرعرس الشاي المكناسي تحت الدالية .. وأعتق أسراب النحل من معاقل الشهد في إفريزالقرميد.. وتراقص حول شفاه البراد الفضي وعلى حافات كؤوس (حياتي)...وكان يتلاثم ويفرك سيقانه نشوانا بشرابه ، وبين الحين والآخريغمس خراطيمه في رشيش الشاي على الصينية ... حشا المهدي بعض أوراق النعناع في الكأس وصبت أمي الشاي عليها وتباطأ المهدي في الإرتشاف في انتظارأن يمتزج محلول النعناع مع السائل الساخن ... بعد برهة نزلت زينب وفي يدها وعاء أقراص حلوى (غريبية) وكانت أمي تتعمد أن تدس كعكة الحلوى في أعلى رفوف الصوان وتغلقه بمفتاح لايفارق خيط المطاط الأبيض الذي تشمربه كمي فستانها وهي كانت تفعل ذلك مخافة أن يفاجئها الضيوف في أي وقت و حين ...
أخذ رضوان حلوى وذكرته أمي بليلة المأتم وطقوسها والحاضرين وحتى الذين تعذرعليهم الحضورمن الأحباب والجيران وعن رحال وأحوال جنائن النخل وآفة (البيوض) والمناوشات التي يضرمها مكرالأيادي الشاطرة التي تحورحكمة الساقية الضحلة ..
وأكد لها للمرة المئة أنه يتمنى بعد أن يتوفق في إحرازدبلوم مهندس للمعادن، أن يسخركل أبحاثه في منطقة الجنوب حتى يساهم في توفيرفرص الشغل والتنمية الإجتماعية واستأصال أورام (البيوض) من مخيال البسطاء ... وأكد لها أن كثيرا من المدن الصغيرة لم تكن قبل نصف قرن تقريبا غير خلاءات ترتع فيها الضباع والثعالب وأصبحت بعد اكتشاف أحد المعادن بها وبالصدفة مركزا حضريا وأساسيا في

المعادلة الإقتصادية الوطنية ...غير أن أمي رفضت الفكرة بدعوى أن المنطقة رغم حضورها في وجداننا ودمنا فهي كما أرادت الأقدارالجغرافية نائية جدا ، وقد يتناقص عدد السكان بها مع توالي سنين الجفاف في المستقبل ...

كنت بين الغفوة والنوم ، واستطبت نفحة النعناع وحديثهما الخافت قرب رأسي، وسمعت الباب يصربفاتحته الكمانية المألوفة كأنها عزفا للعناق يسبقنا .. لم أفلح في التنبؤ بالقادم وإذا بخالي المهدي يقول بصوت بين الهتاف واللغوالعادي :(صدقني يامولاي ادريس ، حدست أنك آت للتو، لأنك شمام عالم برائحة براد العائلة على بعد كيلومترات...) وكانت لخطوات (بلغة) والدي وشوشات ايقاعها الخاص الذي تعودنا عليه وألفه جيران الزقاق ..

نهضت وطلبت من أمي أن تبلل لي بعض مربعات (الهنريس) في كأس شاي .. لكنها وعدتني أنها ستهيئ لي حساءا بالأعشاب خاصا تلك الليلة فرفضت لأنني شعرت بالحاجة إلى العشاء مع خالي ، كما أن استئناسي بهم جميعا وعلى نفس المائدة قد يطعمني بقدر غيرقليل من النقاهة ... وربت المهدي علي صدري برفق وخضخضني وهرشني تحت إبطي فتفتقت قهقهات عليلة رغما عني ووعدني بأن يأخذني غدا إلى المشفى .

اقتعد أبي طنفسة قديمة شغلتها جدتي من حشوة (الصوف) وقماش (الموبرة) الصفراء ونادى علي (ياعثمان أنهض .. انهض .. أنسيت كن رجلا ...؟) ونهضت وأنا متشبث بساعد المهدي .. ووعدني أنه سيأخذني حالما أتماثل للشفاء عندالشيخ عبد الكامل ووعدني أنني لن أعود معه إلا وقد شغل لي لوحة أجمل وأروع وأبهى من كل اللوحات !! وأيقنت أن وعده لم يكن غيرتورية مكشوفة من أجل أن يقوي همتي ويحفزني على نسيان زلزالي الجواني ...

دار الحديث بين والدي والمهدي مرة ثانية عن حكاية الغربة والعزوبة والدراسة والبيض والمطاردات وعن فكرة العمل في الجنوب وموقف أمي من ذلك غيرأن أبي أيد المهدي وقال وهو يفرقع أصابعه ويشبكها كلما بدا في كلامه أمرهام جدا، أن صهره شاب و(راجل) والدول لاتنهض إلا بشبابها وضرب مثالا بشباب لاليمان والمريكان الذين شغلوا العالم بالناروالحديد والعلوم أيضا فسيطروا على كل بقاع المعمور.

أنعشني حديثهما المحمول على نسائم المساء وعبق براد الشاي العبق وأحلام المهدي وذكريات أبي.. وأمي تقشرالخضروتضعها في طنجرة (الكسكاس) وتمارين زينب في المطبخ وعمرعلى الأدراج يردد أناشيد القسم (الفروج مات) و(فرس علي ينام في الإصطبل) وأناشيد أخرى عن المطرتعلمها في المدرسة (يا إخوتي جاء المطر) واستطعت أن أستند الجدار ودنت أمي مني وجست الحرارة على جبهتي براحتها التي علقت بها بعض حبات الكسكس وقرأت في أساريرها بعض هناءة...

همدت الزوبعة .. وانقشعت ولاحت في غمامة الأغبرة الثقيلة ناقلة الجنوب .. تثاقلت في الوقوف قليلا ثم ارتطمت الباب الخلفية بالهيكل .. فجأة قفزالعون إلى الأرض وتراجع بجسده إلى الخلف لمقاومة جاذبية الناقلة وهويخطو بخطى حثيثة وخبط بكفه الغليظة على الباب

قائلا : (على سلامتكم)

شرع الأهالي ينزلون الواحدة تلوالآخر، وانخرطوا جميعا وبشكل تلقائي في حركات تثاؤب جماعية مقرفة .. كانت تلوح على قسماتهم أمارات التعب والإرهاق .. أكتاف مرتخية .. مشي بطيئ مترنح .. كأنهم كتيبة وصلت للتومن إحدى المعارك الشمالية ... ورغم كل هذا فقد كانت سحناتهم ماتزال تحتفظ ببعض بريقها المستعارمن أناقة الحياة المدنية ...

ارتقى العون السلم الخلفي وجعل يمد الأمتعة لأصحابها .. شبك السائق (بلقايد) يديه خلف رقبته ودفع بصدره إلى الأمام ليتمطى قليلا كما اعتاد كلما توقف للإستراحة ، فاندلق بطنه إلى الأمام مثل كوزثم التف حول نفسه يمنة ويسرة بخفة وتنصت لطقطقات عظام ظهره وهمس لنفسه كما هي العادة (الله يعفوعلي من هذ الكار.) رفع رأسه وأمر(الكريسون) أن يشحم بعض قطع الغياروبراقب مجس زيت المحرك وماء(الراديتور) وينظف المقاعد من فضلات الأكل التي يتركها أولائك الهمج القرويون .

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

مد الكريسون الحقيبة لرحال .. أومضت الشمس في عينيه ولسعته سنانها فما عاد يرى شيئا ، فأخطأ في تلقف الحقيبة ، فانخلع سلكها النحاسي وتبعثرت على الأرض كل الأغراض (فولارات ، شرابيل، أكياس البونبون مراهم للعيون ، خراطيش (الشوينكوم)، سلهام وعمامة (وردة) ولوحة عثمان بين قدميه تعفرت في التراب فلمحها (بلقايد) واعتقد لأول وهلة أنها صورة لرحال أتى بها من المدينة تذكارا لزيارته مثلما تعود أن يفعل الأهالي وقتما حلوا بالمدينة .. فالصورة بالنسبة لهم نوع من الإرتقاء في درجات التمدن وتوثيق دائم لمقارعة المتنطعين من السذج ذوي الأفواه الواسعة الذين لم يبرحوا (الواحة) يوما واحدا ... قال (بلقايد) :

ـ آه إنها صورة جميلة ، ظننت أنها لك ـ ونفخ فيها لدرء الغباروأردف وهويردها

ـ من يكون هذا الصبي ، من العائلة أليس كذالك ؟

فأجاب رحال غيرعابئ به .

ـ أجل ، وقد حثني بنوا العم في قصرنا أن أستقدم لهم تذكارا لأحد أحفادهم في المدينة...

كان الجوخانقا وحارا يومئذ ، والشمس تشع بقوة ، انتشروهجها الأبيض المشحوذ على الواقية الأمامية للناقلة .رافق رحال (بلقايد) في ساحة السوق التي تشبه شساعتها حلبات المصارعة اليونانية .. أخبره عن سبب رحلته إلى المدينة ، واندهش رحال من علم (بلقايد) بوفاة (وردة) إذ كان العون قد أخبره بسرالمرأة التي سافرت متنكرة في زي رجل منذ سنين خلت .. وكانت ذاكرة (بلقايد) هي البنك المعلوماتي المخابراتي لتجميع كل سكنات وحركات المسافرين ووجهاتهم في الذهاب والإياب ، وكان مع الكريسون يوشون بأي من المشتبه فيهم على متن الناقلة إلى دوريات الدرك المبثوثة في بعض المحاورالطرقية السوداء وكانت قد نشطت زمنئذ جرائم السطوعلى الدواب والممتلكات وتناسلت أخبارقطاع الطرق هنا وهنالك في ربوع الجنوب بسبب تبعات الجفاف ...

وكما هي العادة كل سوق أسبوعي، كان (بلقايد) يطوف بين الخيام والحوانيت الضيقة الواطئة ، يحيي ويرد على التحايا من دون أن يمل أويكل .. يتلقى سيلا من الطلبات ويوزع الوعود يمنة ويسرة .. كان (بلقايد) في كل الأحوال مركزا للإتصال ومنظمة للغوث تمشي على قدمين ...

دخل رحال إلى مقهى عتيق ، شيده صاحبه بمساعدة أبنائه الثلاثة من عجين الطمي المخلوط بالحشائش اليابسة وسعف النخل الذي أنهكه مرض (البيوض) ... كان المقهى مفروش بحصيرخرمت بعض مواضعه المألوفة وكان الأهالي مقتعدين في حلقات حول صينيات الشاي ... وما كان للمقهى الذي يلقب بمقهى (بوخرصة) ـ لأن صاحبه كان يحمل قرطا في أذنه اليمنى ـ ما كان له أن يعرف كل هذا الرواج الهائل وكثرة الرواد الوافدين من مختلف المداشرلولا محاذاته لمقرالجماعة القروية ودكان الكاتب العمومي والمجزرة وبوابة السوق المطلة على الطريق الدائرية ... كان مقهى (بوخرصة) مرصدا فريدا لضبط نبض الزمان والمكان والناس، ولذلك ، فانه لم يكن في مصلحة أي أحد أن يعاد بناؤه أوحتى ترميم أي مرفق فيه لأن من شأن هذا الإجراء أن يعطل عادة أساسية وحيوية في السلوك السوسيوثقافي للأهالي هنالك وهي التحقن قدرما يستطيع الواحد منهم من الأخباروالنميمة ما يكفيه لمدة أسبوع...

حام رحال بنظراته .. كان يعرف كل الوجوه حتى تلك القادمة من المداشرالبعيدة مسافة نصف يوم على ظهرحمارشاطر... وجوه ذات سحنات قمحية وأخرى فحمية تختزن على إهابها ارتباطها الأزلي بالتمروالشمس والطين العذري ورياح ... وجوه كان يراها كل أسبوع في نفس المكان وبنفس جلسة القرفصاء وحول نفس صينية الكلام كما لوأن أيام الله عندهم كلها تجتمع في يوم واحد...

كان العماري مستلقياعلى جنبه الأيمن وبدا كأنه يتوسط حلقة ذكرإذ كان كل الحاضرين يرنون إليه وكان رحال يعلم كما هي العادة أن حديث العماري لن يشذ عن ثلاث أمور: (حماد والجثة والنخلات السبع) ومع ذلك فقد كان حواريوه ينتظرون كل أسبوع أن يأتي الدرك بحماد مكبلا إلى زقاق (المدوز) ليعيد تشخيص وقائع الجريمة ...

ضوضاء وأيمان غليظة وخبطات الكف على الكف وشرشرات البراريد المحمومة وأحجارسكر(النمر) تتلقفها يد المعطي الذي لاينافسه أحد في الشلة في إعداد الشاي الحاروالمعتق الذي من شربه (لايموت

ومن لم يشربه يموت !!) وهناك في الركن تحت كوة النافذة الواطئة خابية الماء المتلفعة في لفة قماش الخيش التي علاها الخيضوروترسب في قعرها طين السنين والديدان ...
غرف رحال قدح الماء ونهل من دون أن يكترث لما يشوبه من دقيق الحصى والفطريات الناغلة ...
وقال أحد الشلة :
ـ أعلى سلامتك السي رحال، والبركة فراسك ...
ـ ما مشى معكم باس... كلنا ليها !!.
ـ سعداتك أفاعل الخير ...
ـ ماكاينش اللي قتلها بالفقسة من غيرذاك الجلاد ديال حماد ...
ـ كيف حال (الغرب) ؟
استوى رحال في جلسته ، إستند الحقيبة وترشف رشفة صائتة وقال بغيرقليل من الزهو :
ـ من دخله مفقود ومن خرج منه مولود .! تصوروا أنني أوشكت أن أسلم على صورتي في المرآة ... لم أصدق صباح رجوعي بعد أن ودعت عمروزينب وللا كلثوم وأوقفني مولاي ادريس أمام المرآة أنني أنا رحال البدوي البلدي القادم من الجنوب !! من يصدق أن هناك من البشرعلى هذه الأرض يمكنهم أن يحيوا من دون حاجتهم مثلنا للشمس أوا لغبار... ثم إن الجفاف الذي يلازمنا مثل بشرتنا لايسمعون به في المدينة ، بل إن منهم من يموتون هنالك بسبب فائض الماء، فقد سمعت ليلة تأبين (وردة) عن غرق سكارى وانتحارتلميذات راسبات في صهريج (السواني) وشاهدت بعيني هاته التي ستأكلها ديدان القبر، نافورة في ساحة (كاميرا) وسط المدينة الجديدة مهجورة لاترد منها بهائم أو يرتوي منها عطشى !!
وكان حديث رحال عن ليلة تأبين (وردة) كالضغط على الزرالسحري المناسب لحكاية العماري وحماد وتخصيبها بالكثيرمن التأويل والظنون والتخمينات والإضافات والنطق بالحكم النهائي حتى !! وكان الحاضرون يتوقعون أن العماري سيستفرد بالحديث ، فالنازلتان ـ الجثة والنخلات السبع ـ تشغلانه أكثرمن سواه ، وبالرغم من كون فضيحة الجثة في درب (المدوز) قد قوضت هرم شرف وعرض الأهالي في (الواحة) وسارت بها الركبان في كل التخوم المجاورة إلى الحدود الشرقية ، فإن العماري استطاع مع مرور السنين أن يسحب قضية اختفاء (وردة) التي أفشى سرها إلى أهل (الواحة) عون الناقلة وقضية الجثة ويعتبرهما قضيتيه الخاصتين ولم يعبأ بما ستجرانه عليه من تبعات وتطواف في المحاكم وإهانة لأصله ونسله ... والأهم بالنسبة له في نهاية المطاف أن يربح رهان (طارت معزة) ضد غريمه حماد الذي اختفى دون رجعة...
سادت لحظة صمت ، شحنتها جلبة الرواد وضجيج السوق الذي يخترق حيطان المقهى بكل يسر، وملاسنات بعض الأهالي أمام حانوت الكاتب العمومي ... رفع المعطي البراد فلم تنزل منه عدا قطرات قانية ونادى العماري على النادل فيما تدخل بلحاج وأقسم أن يشربوا البراد المقبل على حسابه وكان النادل أحد أبناء (بوخرصة) وقال العماري ليدفع بالآخرين إلى إفراغ ما في زوادتهم من آخرالأخباروهو كان يود في في الحقيقة أن يستدرج رحال الذي ما تزال صقالة المدينة تشرق على سحنته القمحية :
ـ أعرف أنكم جميعا تهبلون على الهجرة من هذه الجهنم .. وهذه الناقلة الملعونة (ناقة) (بلقايد) تسيل لعابكم وقتما ناخت في السوق .. لكن اسمعوا أيها السادة ـ الله يجعل فيكو البركة ـ فحتى لورحل سكان الواحة جميعهم فإنني سوف أكون آخرمن يستقل هذه الناقلة إلى حين طلوعي بحماد من تحت الأرض حيا أوميتا .
وقال رابعهم :
ـ لكن يظهرلي أنك ستربح القضية لامحالة ، فقد مرعلى اختفاء حماد أعوام عديدة وليس في ذويه من هو أجرؤ على أن يحشرأنفه في قضية النخلات السبع لأشواط أخرى أكثرتعبا وإرهاقا .. والمخزن لايرى في قضية من قضايا ملفات من نوع (طارت معزة) سوى بقرات حلوب يورثها مسؤول لخلفه وهكذا يختمرويكبررصيده من الممتلكات إلى أن يرث مسؤول جديد القضية بمن فيها وماعليها ...
وأشاح العماري بوجهه جهة رحال وقدم له كأس الشاي وقال :

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

ـ وأنت قل لي، لماذا لم تبحث لك عن عمل هنالك في المدينة ... ومولاي ادريس أما زال (طاشرونا) مقاولا في البناء
ـ لا.. لا إنه فوت كل المعدات والآليات إلى مقاول مبتدئ واشترى متجرا للفواكه الجافة والمواد الغذائية في شارع (بريما) وأراح العائلة واستراح من غبارالأبنية وارتفاع ثمن الإسمنت ...
ـ ولماذا لم يكلف صهره المهدي بتسييرورشات البناء فهوشاب حاذق وشاطرونابه و(قاري مزيان)
ـ لست أدري ما السبب ، وللاكلثوم أسرت لي أن أخاها المهدي يطمح في أن يحصل على شهادة عليا يكسب بها بلاصة نقية ومحترمة وراتب سمين ويحمروجه العائلة مع الإدارات والسلطة ...
ـ هو السبب ، السبب ف...
ـ من .. من .. المهدي ؟
ـ لآ .. لا.. السبب هومولاي ادريس ، هوالسبب في قطع كل الجذوربيننا ، فمنذ أن نزح إلى (الغرب) لم يتجشم عناء ارسال ولوسبة مع (بلقايد) مثلما يفعل كل الأقارب والأحباب في المهاجرين أما الآخرون فكل من يشق طريق الصحراء شمالا تنقطع عنا أخباره وقد كنت يا رحال على حق حين قلت قبل قليل أن (الغرب) مثل نفق الداخل إليه مفقود والخارج مولود ، ونحن نحمد الله على أنك عدت إلينا ..ها..ها...
ورد رحال بعد أن إستوى في جلسته :
ـ صحيح ، صحيح ، ما كنت لأفكرفي هجركم ، ثم لمن سأترك الوالدة (ايزة) والزوجة والأولاد ، لمن ؟ لقطاع الطرق والقحط والعطش وثعابين (بوضركة) والمفسدون في الأرض أمثال حماد؟!!
وقال المعطي وهومنهمك بكل بجد زائد عن اللزوم في مهمة الصينية ، يقلب كأسا في كأس ثم يفرغه في البراد ثم يعيد الكرة ويضيف حجرة سكر(النمر) ثم يحرك قعرالبراد ثم يتذوق من جديد وأخيرا يقلب نفس الكأس في الكأس المحاذية ويقيس نكهة الشاي بحافة شفته المفلوقة قبل أن يملأ الكؤوس، فهويعرف أنه لو فشل مرة في ضبط مقاسات الشاي لفقد مكانته عند العماري ومكانته في الشلة والواحة والحياة كلها ستضيع
ـ نعم ..نعم أنت على حق ، خصوصا بعد أن عفرالوغد (حماد) شرفنا جميعا بتلك الفاحشة المعلومة ويده طويلة في واختفاء (وردة) .
ومدد العماري رجليه أمامه ، فلاحت قدميه من فتحة الدراعة كأنهما منحوتتين من طوب التيرس .. كانتا متشققتين وقد علتهما طبقة سميكة من الأدران المتكلسة وقال :
ـ لقد كانت (وردة) زوجة شغالة وأنوسة ومليحة وعيبها كما ادعى ذالك النذل أنها عاقروما زلت أذكركيف كانت ترأف على صبايا درب (المدوز) .
ـ أجل ، ما زلت أذكرعنها كل صغيرة وكبيرة .. شرائح الفطائرالمدهونة بلمسة سمن نعاج (الدمان) وأقداح حليب النوق ولون الحناء الكستنائي الغامق على كفيها البدويتين وقدميها ورائحة القرنفل في ضفيرتها الفاحمة وما أزال أذكرحلمتها التي تشبه حبة حمص بنية وهي تضمني إلى صدرها وتقول (ارضع .. إرضع يا احميميد) ولم يكن بثديي المسكينة (وردة) قطرة واحدة ، وكنت أناديها عمتي (وريدة) ... وقد زارت ماما (ايزة) قبل اختفائها بيومين وسمعت مرة حماد يهددها بالطلاق أوالهجرة إلى (الغرب) ويصرخ في وجهها (سوف ترين في يوم ما كيف سأعود قادما ب(لالاك) الشقراء من المدينة ـ وكان يشيرإلى جهة الشمال ـ يكفيني فقط أن ترن بعض الدراهم في جيبي وأرتدي الكوستيم الرومي وألمع الحذاء وأفرق شعري ...)
وقفزالعماري والمعطي دفعة واحدة معا كما لوأنهما متفقين على شحنة كلام حانق كان كامنا في قرارتهما بيد أن المعطي سكت فاسحا المجال للعماري الذي طرق بكأسه على الصينية بقوة حتى تطايررشيش الشاي على وجوه البعض وصاح بأعلى صوته متعمدا ذلك لإثارة فضول الحاضرين في المقهى :
ـ أقسم بالله العلي العظيم وأراهن برأسي على أن حماد هوالعاقر ... وحتى لو تزوج هذا الوغد جميع نساء الجن والإنس فلن تنجبن من صديد صلبه وترائبه فأرا واحدا .. لكن من منا أنصف تلك (الولية) الضعيفة غيري (ايه أنا ..أنا) وشرع يضرب على صدره براحته الواسعة المفلطحة وسمع الرواد خبطاته

القوية فالتفتوا إليه وكانوا يعلمون أن جذبة العماري تلك لن تشد عن حكايته المعهودة مع (حماد) بل إن من رواد المقهى من ندم على التفاتته والكثيرمنهم استسخروا بحلقته المبتذلة ، وبدت كأنها حلقة أهل الكهف وكل ما هوجديد فيها هذا السوق هوعودة رحال وحقيبته وأردف العماري بزفرة حارة ـ وهاهي قد رحلت إلى دارالبقاء خاوية الوفاض (لاحمار،لاسبعا فرانك).

وقال رحال :

ـ لا..لا .. ألسي العماري الحمدلله أنها وجدت عزاءها في ذرية مولاي ادريس قبل أن يذوب جسدهاعلى سريرالأسقام ... ويحزفي نفسي اليوم أنني لم أراها منذ اختفائها ... لقد رأيت الخرابة تحت أدراج حاجز الأرابيسك في الفوقي .. كانت ناسكة هنالك وزاهدة في الصلاة ، عاكفة على التهامس إلى روحها بأسماء الله الحسنى واحتساء شراب الأعشاب ، وقدأخبرني أطفال مولاي ادريس أنهم كانوا يتوجسون من الولوج إلى خرابتها مخافة من مس عظيم !!

ـ ومن أوعز لهم بذلك ؟! قال بلحاج .

ـ لقد سمعت للاكلثوم من خلف ستارالخرابة الفقيه السي العربي يطالع (المحلة) ويقول أنها (نطفة نجسة) وعليها أن تنحرعتروسا أسود ليلة جمعة على عتبة ضريح سيدي علي بن حمدوش بجبل (زرهون).. وعلى حين غرة فتح الحقيبة وأخرج لوحة عثمان وقال في ما يشبه الإعتزازبالحصول على شيئ نادرونفيس من مكناس :

ـ انظروا .. هوذاعثمان نجل مولاي ادريس!!

تلقفها العماري بسرعة واحتسى الكأس دفعة واحدة ودفع به إلى المعطي ليملأه من جديد ... مسح اللوحة بكم دراعته وتلمس إطارها الخشبي المذهب ثم تملى فيها جيدا وطفقت أعناق الآخرين تتمطى لتسترق النظر (الذقن المرفوع قليلا جعل الأنف يبدومعقوفا في صرامة .. العينان العسليتان ترنوان إلى الأفق.. إلى حيث يتربع القمر) وقال العماري وهو ينقرعلى قماش اللوحة :

يا سبحان الله إنه يشبه جدنا (بالمختار) أليس كذلك يا بلحاج؟!

وطافت اللوحة من يد لأخرى ... ودخل (بلقايد) وفي يده شيء ما أودعه عند النادل (بوخرصة) ، وتربص النادل بكلب مقروح كان جاثما على عتبة المقهى باسطا رأسه في وضع كان يضايق الزبناء على العتبة وركله على حين غرة فأطلق الكلب زعيقا وعواءا يشبه فرملة عجلة حادة ونهضت كلاب أخرى قرب المجزرة وتصاعدت جوقة نباحها وتهارش بعضها ببعض وضاع وسط الزحمة جروكادت أن تدهسه قوائم جمل ... وفجأة ظهرت مؤخرة سيارة (اللاوندروفر) وبداخلها شخص يداه خلف ظهره وبدا أنه في كان حالة في اعتقال ودنت سيارة (اللاوندروفر) من باب المقهى وبدت ملامح الشخص واضحة للسواق بيد أنه أشاح بوجهه إلى الجهة الأخرى خجلا وحتى لايتكشف أمره للناظرين ...

وأطل الشيخ من نافذة (اللاوندروفر) وأسرللدركي السائق بخبرما ، وفي تلك اللحظة خرج (بلقايد) مهرولا وقدم الوديعة للدركي الثاني الذي وافق على أمرما بهزا ت رأسه ونبس بكلام ما فيما معناه (كن هاني) وقد كانت الوديعة على الأرجح شرائح لحم وكبدة وخرطوشة سجائرثمينة .

لحظتئذ هم العماري والمعطي بالتحدث للدركيان وهما مازالاعلى متن (اللاوندروفر) .، وما إن أولج قدميه في نعاليهما حتى كانت (اللاوندروفر) قد مرقت من بوابة السوق باتجاه علامة طريق (الريش) وخمن (بوخرصة) أن الأمريتعلق بأحد قطاع الطرق وقال العماري دون أن يلتفت للمعطي وهو كان يحدث نفسه على الأرجح (تمنيت لو كان حماد مكبلا في اللاندروفر...) وخرج رحال وهم بالإنصراف غيرأن العماري عرض على الجميع تناول الطجين .

مرت الساعات بين الكلام عن هموم ومستجدات السوق ولم تهدأ مروحات الدوم التي تشبه رايات صغي لحظة عن مناوشات الذباب الوقح العنيد ، وخفت حدة حرارة الظهيرة وخبت أشعة الشمس من مسام القياطين وطفقت تخفق بهبات نسمات طفيفة وبدأت بوابة السوق تعج بالعائدين لمداشرهم ...

أخذ رحال حقيبته واجتازساحة السوق عرضا لتلافي أكوام التموروالحناء والشعيروقلائد الملوخية وأفرشة الأعشاب والتوابل والحصروالمجامروواللمبات و... وسمع تاجرا بلكنة فاسية يساوم أكواما من

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

سلال تمورٍ(المجهول) وهوأجود أنواع التمروقال الصحراوي أن الثمن غيرمناسب و(المجهول) نادرفي الزمن الراهن ومرض البيوض قد أتى على أجود الجنائن في الواحات... ونعت بمسحة من السخرية التجارالفاسيين بالشطارة والحربائية وقال أن كلامهم يقطركالعسل بينما المال في قلوبهم وليس في جيوبهم ...

عند بوابة السوق صادف رحال رجلا من مدشر(البير) يمتطي أتانة ضخمة ، شهباء وهنأه على عودته من (الغرب) وسأله رحال عن حالة (ايزة) والزوجة والأولاد ، وأخذ الرجل الحقيبة ووضعها على ركبتيه والأتانة مشاية .. مشاية بخفة وقد تحلق حول رأسها سرب من الذباب ، وحطت على أذن الرجل حشرة البغال الصفراء ولسعته فناوشها ، واختفت ثم بعد برهة قليلة حطت على أذنه من جديد فناوشها ثانية حتى كاد أن يدعسها غيرأنها ظهرت من جديد بين زغب الأتانة فخبطها بمروحته وبدا أنها قد إنبعجت .... وسأل الرجل رحال عن أحوال المدينة وكان الرجل يطفح شقاوة وسذاجة أكثروأوفى ولايعرف عن أمارات الغرب سوى ماتلتقطه أذناه من أفواه الناس كل سوق وبعض المسافرين من أهالي مدشر(البير) ...

وكانت الشمس وقتئذ قد عامت بالتمام بين كثبان الرمال اللافح وتحول وهجها إلى كمياء ضباب كستنائي واطئ وثقيل ، امتزج بنقع الدواب الحثيثة إلى القصورالنائية قبل أن تدركها الظلام في الخلاءات الموحشة .

فجأة هبت لفحات حرارة عابرة وكانت ايذانا بحلول ليلة قائظة ومهيجة لنوبات السعال والربو، وشعرأحمد بالغثيان وأمعاؤه كانت تتضوروتغرغروخمن أن السبب في ذلك ربما هولحم الطجين وهوفي غالب الظن كان لحم عنزة مسنة وتوقع بالعادة أن نوبة اسهال آتية الليلة لاريب فيها وتوارت الشمس وأغمدت آخرسنانها في الفج السحيق ولاحت من جهة الحدود الشرقية غلالات المساء الشفيفة وانقشعت الطريق وهبت نسمة خفق لها حائك أسود لامرأة تحمل على رأسها صحنا كبيرا مشغولا من ألياف الدوم وهي يلاحقها أبناؤها الأربعة وبدا أنهم قد أحلقوا رؤوسهم عند حجام السوق ... وكانوا يتلمضون علك (جابان) وحبات التمرالمدعوس ... واقترب رحال من مدشر(البير) ولاحت من بعيد (ايزة) تنادي على أحد الأولاد من كوة عالية بيد أن الطفل تغافلها وهرع حافيا كالسهم حين راى رحال قادما والحقيبة البنية بيده ... وكانت ضفيرة الطفل الطويلة تتطايرخلفه في كل اتجاه ثم لحق به أولاد آخرون وكان جرويجري أمامهم وحام بخفة واغتباط حول رحال وكان يبصبص بذيله الذي تحول في مؤخرته مثل علامة استفهام وطفق يصيت بلهاث حاروكان جروا ضالا ضامرا تبدوعظمتا وركيه بارزتين .. قبل الطفل يد أبيه رحال ولم يكن ببوابة القصرحلقة للرجال كما هي العادة كل مغرب شمس ، فاليوم كان يوم سوق أسبوعي ولايمكث بالمدشرسوى الشيوخ الواهنون والنساء المحتجبات والأطفال وكثيرمن الرجال لم يعودوا بعد... دلف رحال ، استقبلته زوجته فاطمة خلف الباب الخشبي المتداعي ... سلم عليها ، وألفى لمسات كحل زائدة عن اللياقة في حدقتيها الضيقتين وحمرة سواك قان على شفتيها وقد ازداد احمرارا على لثتها البارزة قليلا ... وكانت فاطمة تتزين على شظية مرآة مكسورة .. ناتئة الحوافي كرؤوس السكاكين ... دلف رحال إلى الغرفة ، وجد ماما (ايزة) مقتعدة أرضا على فروة عتروس سوداء والسبحة بين أناملها ... قبل رأسها مرارا ثم يدها .. وكانت قد انتهت للتو من صلاة المغرب ورآى ومضات نارالفرن على الحائط المحموم ... ولمّعت فاطمة مشكاة اللمبة وأوقدتها وعلقتها على مسمارها المألوف ..وحميت حركة الأولاد من ركن لآخروتحلقوا حول الحقيبة ووعدهم رحال بالكثيرمن الهدايا والحاجات المكناسية النفيسة ودمعت لحظتئذ عينا (ايزة) وهمست (إنا لله وإنا إليه راجعون) وتذكرت يوم فاجأتها (وردة) بالدارليلا هاربة من سياط حماد ، وسألته عن سبب مرض (وردة) وأجواء المأتم والتأبين وأخبرها أن كل أسرارسقم (وردة) طالعها الفقيه على صفحة سماق (المحلة) وظهرسبب مسها أنها كانت تحمل نطفة قذارة !! ، ولذا كان مسها مسا عظيما، وأثنى على مولاي ادريس الذي لم يبخل عليها بأي شيء منذ أن حلت ببيته إلى أن أسلمت الروح لباريها وحدثها عن ليلة المأتم الثالثة بعد وفاتها وقال أنها كانت ليلة مقدسة وروحانية تليق بمكانة (وردة) وتمنت (ايزة) لو حضرت وقائع الدفن لشفت غليلها من البكاء والنواح ولعفرت وجهها بتراب قبر(وردة) ... وقالت لها فاطمة (استغفري الله يا لالة... فكلنا ليها).

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

بعد العشاء فتح رحال الحقيبة وقدم لهما خمارين أسودين وشربيلين وفستانين ونطاقين مجدولين من خيوط الحريروالصقلي الفاسي لكل من والدته وزوجته ، ووضع على المائدة علب شاي (القافلة) الممتازالذي يقبل عليه الأهالي في الواحة بكثرة وقالب سكر(النمر) وأخرج لوحة عثمان من جيب الحقيبة الداخلي وقدمها ل(ايزة) ، فتملتها على نوراللمبة بصعوبة ولم تتبين ملامح عثمان إذ كانت تعاني من ضعف البصرليلا ثم قدمتها لفاطمة وتمعنت فيها مليا بيد أنها بقيت صامتة ، وفجأة قال رحال:

ــ إنه عثمان .. عثمان إبن أخيك مولاي إدريس ! ثم أعادتها فاطمة ل(ايزة) وتملتها مرة ثانية وقالت (جده المختارياسبحان الله هو نفسه) وأجاب رحال (أجل ، أجل ولذلك أصررت على تهريبها معي يا أمي ، وأنا على يقين تام أن فعلتي هاته ستفجرفاجعة في الدارمع عثمان لن تهدأ بعد عودتي ...)

إثرئذ قصف دوي رعود بعيدة .. خلف جبال الأطلسي .. وكانت عادة ما تقصف الرعود وتومض البروق فوق القناني القصية في مثل هذا الوقت من كل عام ... وفاحت في المراح المترب أدخنة الفرن الحارة التي تهيج نوبات السعال عند الأطفال وتسللت إلى الزقاق عبركوة المدخنة ممزوجة برائحة الطبيخ الأشهى الممهوربنكهة اللحم ... ومرح الأولاد كما لم يتعودوا أن مرحوا من قبل على نوراللمبة الخافت ... وشاكسوا ظلال بعضهم البعض على الجدارواستسخروا من أشكالهم حتى حان موعد العشاء ...

ووضعت فاطمة الطجين على الحصيربعد أن رشت مبيد الحشرات بمضخة (فليتوكس) حول اللمبة والهواء وبعد حين جعلت أسراب القتلى من الذباب والبعوض تتهاوى على المائدة والحصير ... وفي تلك اللحظة نزل رحال من السطح بعدما طاف بناظره حول الآفاق وصلى العشاء ، وكان أحب الأويقات لديه أن يتعبد ليلا على السطح تحت جلال العتمة والكواكب المهيبة...

بعد العشاء ، أفرشت فاضمة السطح بملاءة رمادية قديمة وفروات هنا وهناك وأعدت براد شاي بحبوب (القافلة) والنعناع المكناسي ووضعته على المجمرإلى جانبها ليطبخ وكان رحال يرنوإلى الدياجيرولألآت النجوم وهوقد كان في السريلتمس أي عذركي يفاتح به سمره معهن عن رحلته إلى (الغرب) ، ثم فجأة قال :

ــ انظروا إلى هذه الظلمة المريعة ... ما الفرق هنا بين أن يكون الإنسان بصيرا أوأعمى ... بين أن نغمض أعيننا أونفتحها هنا يا أمي... فلسنا ندري ونحن على هذا السطح هذا المساء أي زمن نعيش ، فلورأيتما المدينة ليلا من على سطح دارمولاي ادريس لخلتم السماء أرضا والأرض سماءا لغزارة الأنواروالمصابيح المزروعة كالأشجار في كل درب وزاوية ... وقالت (ايزة) والسبحة بين أناملها (اللهم صلي على النبي) هنا على كل حال ترعرع أجدادنا وترعرعنا بعدهم وقد تعلمنا على أيديهم كيف نسري في الظلام الدامس من دون أن نتعثرأوتكبو مطايانا ... يا بني إن نورالقلب أقوى وأبقى من كل أنوارالدنيا الفانية ... ولن أنسى أبدا أن خالك مولاي ادريس رحل إلى الغرب مشيا على الأقدام بصحبة ثلة من شباب الواحة ولم يتزودوا سوى بنورالتقوى وحيثما كان يداهمهم الظلام يبيتون متلفعين في سلاهيمهم وكانوا يطعمون أنفسهم شطائرالخبزاليابس وجرعات ماء الترعات... كان ذالك العام يابني يسمى عام (جراد) ... أذكريا أبنائي كنت صبية زمنئذ وكنت أرى السماء سقفا من الجراد الحالك يتماوج مثل يم متلاطم معلق في الهواء وضرب وباء (التيفوس) وعم الجوع الكثيرمن المداشروالدواويرحتى بات الأهالي يستنكفون عن تقديم التعازي لبعضهم البعض واضطركثيرمنهم إلى قلي الجراد المالح وزدراده .. أي والله قليه وازدراده ... لقد كان عاما أسودا ، ازدحمت فيه على الواحة كل الآفات والروامة طوقونا ومنعونا من السياحة في أرض الله الواسعة ، ورغم ذلك قاومنا ظلام الليل وظلام الإحتلال ... والآن الحمدلله على كل حال ...ألا ترى أن نورالشمعة أفضل من نورلامبة الغاز.. إنه نورهادئ ومبارك ؟! وقال رحال :

ـ ولكن ألوالدة لو.. لو.. لورأيت أقول لورأيت سحرتلك الأسلاك النحاسية التى صارت عروقا للحياة في المدينة لرحلت في الليل قبل النهار ...

وردت (يزة) بجواب لم يبعث على رضاه :

ـ أبدا .. أبدا ، لن ترضى روحي أن تدفن تحت حيطان العمارات والآجورالمغشوش ... إن أملي كل أملي الله يرضي عليك ياولدي أن تدفنني تحت ظل النخلة المعلومة قرب قبرجدك (المختار) وأردف رحال :

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

اسمعي يا فاطمة إن كل الماكينات هنالك تتحرك فقط بالضغط على الأزرار... تصوري ألوالدة أنني مذ نزلت بالمدينة لم أشم لحظة واحدة رائحة الدخان هاته التي تزكمنا من بطن الفرن ، فكم مرة ألفينا خياشيمنا عند الصباح محمومة بدخانها أليس كذلك ؟... انظري إلى صورة عثمان في اللوحة (هذا الجد الصغير) سليل جدنا (بالمختار) متى كنا نحلم أن ننتشي بلوحة مثل هاته تخلدنا لحفدتنا القادمين ...
صدقيني ألوالدة أن ورشة التصويرعند الشيخ عبدالكامل لاتختلف عن مزارات الأولياء مثل هي نعمة من نعم الله التي سخرها لناس المدينة ولو لم يكن حذق وبصيرة الشيخ عبدالكامل لما استطعت أن آتيكم بصورة تكاد تنطق عن نفسها ...
وخيم الصمت برهة، صمت رهيب وجميل شابه نباحات بعيدة ولاحت في الأفق على الكثبان لمبات خافتة تدب بتوأدة وخمن رحال أنهم آخرالسواق وتأكد من ذلك حين أنارت إحدى اللمبات قوائم دابة محملة بالبضائع ... وفجأة مرق نيزك خاطف ، مزق لحاف السماء الدامس وهمس رحال بصوته الخفيض إلى السماء قائلا (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) وأدركت (إيزة) وفاطمة معا كما هي العادة أن رجما للشياطين قد مرق في السماء ورددتا مثله (أعوذ بالله من الشيطات الرجيم).
التفت رحال وألفى الجميع قد استسلموا لوسنة طفيفة ، وكان الليل قد جن والمجرات غرقت في بحرغسقها المطلق .. استند على السوروسوى المخدة من تحت قفاه واسترخى .
قامت (فاطمة) ونزلت الأدراج في هدوء إلى المراح ، وكانت نارالفرن قد خمدت وانشدخ حطبها وطفحت فوقه طبقات من الرماد السميك...
دلفت إلى غرفتها .. أوقدت الشمعة ورتبت منامها .. واستلقت على السرير.. ولم يكن نومها في الحقيقة سوى إغفاءة آيلة لليقظة في كل حين وقتما ينزل رحال من السطح .
لم يكن هناك ما يلهي الأهالي عن النميمة والثرثرة ولذلك كانت أيامهم عادة ما تنساب على بوابة الواحة هادئة إلى حدود القرف ، قائظة وثقيلة مثل جريان نهرأخرس محمل بالأوحال ... كان اليوم يمضي على ايقاع رفرفات مروحات الدوم وارتشاف براريد الشاي المعتق القاني واغتراف الألسنة من معين ما تبقى من رصيد السوق من ثرثرات وأخبارمستنسخة بعشرات التخريجات والحبكات ...

0-0-0-0-0-0-0-0-0

اليوم ، يوم ليس ككل الأيام .
اقتعد رحال صعيده المألوف .. شرفته الأليفة على الجنائن والعرصات ، وبعد وقت قصيرشرع أصدقاءه يأتون تباعا وكان استهلال أي حديث وعن أي شيء وبأية فاتحة أيسرمن جرعة ماء والأهم من كل شيئ أن يتكلموا عن كل شيئ ولاشيئ والحديث غالبا مايبتدئ من بوابة السوق ليخرج منها في النهاية .. ثم شرعوا عن غيروعي يقلبون أحوال السلع والأثمنة وقضايا تعدد الزوجات والطلاق والإرث والمنازعات التافهة والهامة ... وكان موضوع المدينة على طرف لسان رحال مثل الأكلان اللذيذ لكلام يتحين الوقت للوثب إلى مقدمة الحديث في حلقتهم ...
وما إن ورد اسم (بلقايد) حتى نط رحال كالسمكة الواجفة بينهم وصاريقلب مواجع الرحلة ومتاعب الطريق المتربة المتلبسة بالحفروالكومات واستفاض كثيرا في الحديث عن رعب المفازات التي لاتسكنها سوى الرياح الهوجاء التي تطمس معالم المسالك بكثبان الرمال المتقلبة وترتع فيها الضباع والحيات الرقطاء والضبب والعفاريت ...وتحدث عن (مكناس) ومظاهرالتمدن الأوروبي وكثيرا ما كان يخطئ في أسمائها ولذلك كان يتمم شرحها بإشارات معوقة ... ثم حدثهم عن دارمولاي ادريس التي تشبه رياض باشا من بشاوات ذلك الوقت ... وحدثهم عن سطحها العالي الرحيب الذي يشرف على عتاقة المدينة القديمة وجنائن الحبول ومرابع هضبة (وليلي) على سفح جبل (زرهون)... وتهيأ له أن الوقت قد حان لاستدراجهم للحديث عن لوحة عثمان وكيف هربها صبيحة يوم عودته ودسها في الحقيبة وحاول إقناعهم أن مكانها الجديرة به هوجدارمن جدران (الدار) المحروسة ، وقد خامرته فكرة ايداعها عند شيخ

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

المدشرفأصروا جميعا على رؤية اللوحة وهاهوعلى حين غرة يمرق كالسهم ويأتيهم بها من قبل أن ترتد أطرافهم ... فتلقفوها كأنما نزلت عليهم من السماء وكانت عينا عثمان في اللوحة تومضان ببريق غامض بدا على غيرما كان رافعا رأسه أكثرونورالقمريصطبغ في بريق العينين حتى تهيأ لرحال كما لوأن عثمان قفزمن إطاراللوحة الذهبي ووقف على عتبة الواحة مثلما كان يفعل (باالمختار) يتملى الفضاء والكون مثلما يتملاه الأولياء وكانت آنئذ تشوب الواحة مسحة حزن ملغز... وأخبرهم رحال عن حانوت الشيخ عبدالكامل وطاف عليهم بناظره كالمشدوه وقال : فمن أيها السادة أحق بهذه اللوحة نحن أم أهل مولاي إدريس ثم إنني لم أتطاول على فعل شئ ليس لي فيه نصيب من سداد الرأي والوجاهة .. وقال رجل آخر : أجل معك حق يا رحال في المدينة باستطاعة عثمان أن يصنع له ما يشاء من الصورفي حانوت الشيخ عبدالكامل ، أما نحن في هذا الثلث الخالي فلم نتعرف على ملامحنا الحقيقية إلاّ على مرايا مهشمة أوعلى صفحة سطل ماء عكر... وتابع رحال : ألم تروا أنني استرددت لوحة تشبه إلى حد بعيد جدكم فنلت بذلك أجرالدنيا والآخرة ... إننا حرمنا في ما مضى من رؤية جدنا واليوم نحمد الله أن رزقنا حفيدا يشبه جده في كل القسمات والملامح والأساريروالنظرة الحازمة .

وساحت على طلعاتهم نشوة مغمورة برائحة الجذورالسحيقة ... وشعركما لم يشعرمن قبل أن رحال أنه قد أتاهم بشيء عظيم ... وعام في حالة زهو باذخ وحسب نفسه أن لاأحد من الأهالي قد أتاهم بهذا الكنزالثمين مذ قضى جدهم (باالمختار) على ضفاف واد(زيز) بداية القرن العشرين .

انتشرخبرلوحة (الجدالصغير) عند كل أهالي مدشر(البير) وكثرت الطرقات على الباب كل وقت وحين وكانت اللوحة تسحب من الحقيبة وتعاد إليها في اليوم عشرات المرات... وشاع أمرها حتى في القصورالمتاخمة لمدشر(البير) ... ما جعل رحال يعلقها على جدارالبهو في وضع يمكن للجميع رؤيتها حتى المتلصصين العابرين من خلال شقوق الباب المتداعي ... وقام (الزربان) وأبلغ رحال في إحدى الليالي الليلاء أن أعيان مدشر(البير) باتوا يتشاورون في أمرمصادرتها وإيداعها عند الفقيه سيدنا (الصادقي)...

وكان يوم السوق التقى رحال بالشيخ وأكد له أن (الزربان) متهورومفتري كبيرومن طينة السفلة الذين يبيعون ذمتهم من أجل جرعة شاي وقد يكون الخبربايعازمن العماري ثم إن كل ما في الأمرأن بعض الأهالي فكروا في بناء حانوت للتصويرتشبه حانوت الشيخ عبدالكامل ...

وفكررحال كثيرا في إخفاء اللوحة في مكان لايفشي سره لأحد ، واستشارماما (ايزة) وأوحت له بصندوقها القديم المطرز، وأشارت عليه فاطمة من جهتها بأحشاء السريروأوعزله آخرون بأن يرجعها مع (بلقايد) يوم السوق إلى مولاي ادريس ليريح الناس ويستريح ويشفى عثمان من مسه وسقمه ، لكنه استسخركثيرا من كلامهم وأرسل قهقهة ترددت في بهوبوابة المدشرالظليلة ، قهقهة فيها كثيرمن الغيظ المشوب بالإستخفاف ... وانصرف من دون أن يسلم على أحد وكادت الروابط بينهم تؤول إلى عداء أبدي ... وعاد إلى البيت ووجد بعض الشبان يسترقون النظرات من شقوق الباب فحيوه في خجل ثم تفرقوا والحمرة تعلومحياهم ... وخامره قلق وتوجس عظيمين وضاقت به كل ربوع مدشر(البير) وبدت له كل الأماكن والمخابئ في نظره مكشوفة وعارية ولها عيون وأفواه وأصوات تكاد تنطق بمكنونات أسرارها ...

وتغيرت عاداته فلم يعد يحضرمجالسات الصباحات ولامسامرات الأماسي على رقعة (الضامة) والصينية عند بوابة القصر.

على السطح ، تمدد رحال على الملاءة الرمادية ..أسند برأسه كما هي العادة على السور ، ونام ...

أحمد يحلم...

طائرمغبرالجناحين ، عليه آثارالسفر .. يسف فوق رأسه .. يسمو إلى كبد سماء ملبدة بالغيوم ... ينزل ثم يخرج ثانية من غيمة داكنة أخرى .. يهوي على ترعة الواحة ثم يخرج منها.. ينتفض بجناحيه فوق رأس أحمد .. فجأة يكبرالطائر يتحول نسرا يطيربرحال إلى أكمة بعيدة ويسجنه في قفص...

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

استفاق رحال مذعورا .. ألفى نفسه منقوعا في غبش مطلق ... وتهيأ له أنه ماسك بقضبان ...نهض فجأة .
صحا شيئا فشيئا وكان مزاجه عاكرا مثل ماء ترعة معزولة وشرعت تترسب شوائب الكابوس في قعرالذاكرة وبعد لحظة صفا خاطروالرؤية انقشعت ...
لم ينتظرحتى مطلع الفجر ، بل نزل الأدراج بقلب خافق ، كأعمى يتلمس الحيطان ودلف إلى الغرفة .. أيقظ (ايزة) واقتعد جنب سريرها وأخبرها برؤياه فأشارت عليه بأن يستفتي الفقيه سيدنا (الصادقي) وكثيرا وارتاب في أمروالدته التي علمته أسرارالصحراء ومنطق الدواب والطير... هي التي أرضعته نبضات الطبيعة .. فكيف عجزت عن فك لغزرؤياه ...
جعل يفكر .. سيدنا (الصادقي) ..اللوحة تسبقه .. الطريق مزروع بأشواك الأسئلة والعيون الجاحظة .. وخمن أن تفسيرالرؤيا قذ يذهب باللوحة وبه على السواء ، وخمن أيضا أن فتنة آتية لاريب فيها ..وسرى .. بعدما آوى الأهالي إلى أسرة نومهم وخلت أزقة المدشرمن كل ساري أوحائم...
طرق الباب ..سمع كحات ثم صوت قدمان تنتعلان(بلغة) ونورشمعة خافت يكبرويتسع في الظلام ويدنو شيئا فشيئا من الباب :
ـ مساء الخيرسيدنا (الصادقي) .. رحماك افتني في رؤياي ...
ـ من الطارق؟
ورد بصوت خافت وهويتلفت يمنة ويسرة مخافة أن يراقبه أحد ما في ذاك الهزيع من الليل : أنا رحال ولد ماما (إيزة) .
شرع الباب ورفع الفقيه نورالشمعة إلى وجهه ليتأكد من ملامحه .. خفض الشمعة ودلفا معا واقتعدا مصطبة طينية عند مدخل غرفة للصلاة :
ـ خير ألسي رحال ؟
ـ يا سيدنا (الصادقي) رأيت فيما يرى النائم .....
ربت الفقيه على كتف رحال ومسح بكفه على رأسه وهويتمتم بأدعية تقال إثررؤى مرعبة وكوابيس، فشعررحال ببعض السكينة وقال الفقيه (قم يابني وصلي ركعتين حمدا لله ثم نم وستصفورؤياك قبل مطلع الفجر) قفل رحال عائدا .. صلى ركعتين..و نام ..
رحال يحلم مرة أخرى ولم تجد الإغفاءة بمفتاح القفل المسحور...
طائرمغبرالجناحين ، عليه آثارالسفر .. يسف فوق رأسه .. يسمو إلى كبد سماء ملبدة بالغيوم ...
ينزل ثم يخرج ثانية من غيمة داكنة أخرى .. يهوي على ترعة الواحة ثم يخرج منها.. ينتفض بجناحيه فوق رأس أحمد .. فجأة يكبرالطائر يتحول نسرا يطيربأحمد إلى أكمة بعيدة ويسجنه في قفص ضربت شمس الشروق على وجهه الذي كان ينزبعرق الألغاز ... كان يوما منذورا لرياح السموم الحاميةالتي تذرإبرالكثبان المتقلبة واللاسعة ... استنكف الأطفال عن رعي قطعان الإبل والماعزوخراف (الدمان) إلى المراتع الشحيحة ... وانشغل الكثيرمنهم بشقوق الباب ... وعادت الطرقات مرة أخرى ... وذات مساء أسرالفقيه إلى بعض الأهالي برؤيا رحال ... وبعد أن تفرقوا هام كل واحد في تأويلاته وتفرقت بهم السبل فيما ذهبوا إليه ولم تخل لمة في بيت أوركن من الحديث عن الرؤيا.. وتعددت مرة أخرى الطرقات على الباب المتداعي ونفذت الأنظارمن شقوقه وانشغل أولاد رحال برشق المتلصصين من على السطح بحبات التمورالفاسدة وقلال الماء القذر.. وكانت فاطمة و(ايزة) لاتفرغان من مجالسة مع نساء المدشرحتى تنشغلان بأخرى ، مرة في البيت ومرة على السطح وفي كثيرمن الأحيان على عتبة الدار، وكان رحال حيثما وطئ تلاحقه التأويلات والتفاسيرمن علية القوم ورعاعهم وكانوا في الغالب يشيرون عليه بايداعها عند الفقيه سيدنا (الصادقي) ، بيد أنه ظل ثابتا على موقفه وحقه الشرعي في الإحتفاظ باللوحة مدى
الدهر ...

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

ومرت الأيام بين جزع وهوس ووساوس .. كان ينزل نهارا إلى الواحة .. متوحدا في عزلته .. يفكربين ذهاب وإياب .. بين أحواض الفصة والحناء والنخلات القليلة التي أتت على بعظها آفة (البيوض) ... ذات فجر، استفاقت فاطمة ..حملت كوزالماء خلف ظهرها وشدته إلى صدرها الضامربطرف حبل الدوم ..وخرجت للإستسقاء من البئرالوحيدة في منتهى منحدر(الواحة) ...وكم كانت دهشتها عظيمة حين ألفت الباب مشرعا على غيرعادته.. عادت إلى المراح ولكم كانت دهشتها أعظم حين لم تجد اللوحة على الحائط .. دلفت إلى بيت (ايزة) مشدوهة.. أيقظتها وأخبرتها بالأمروصعدت كالقطة الهلوعة إلى السطح فلم تجد رحال كما إعتاد أن يبيت في الأيام الأخيرة ...كانت كل الأشياء مازالت منذ الليلة هنالك في مواضعها ... الصينية.. البراد .. كأس الشاي طست الغسل .. المخدة على السورالواطئ .. الملاءة الرمادية .. فروة التيس الأسود .. السبحة... والمقراج الفارغ ...

ارتابتا معا .. لم تشاءا أن تتسرعا في الأمربل انتظرتا إلى حين أوان الضحى ، وما هي إلا لحظات حتى صرالباب ودخل رحال بيدين فارغتين ولم يبدوعلى محياه ما يثيرالجزع بل كانت أساريره أكثرانشراحا وارتخاءا من حالة إنقباضه بالأمس...

قالت (ايزة) وهي تشيرإلى حائط المراح وأساور(النقرة) الثقيلة تجلجل في كوعيها :

ـ اللوحة طارت يا رحال !!

ونطقت فاطمة كالبلهاء :

ـ وجدت الباب مشرعا على مصراعيه.. من ... من .. قل لنا ماذا حدث ؟!

رد رحال بنبرة هادئة :

ـ مهلا .. مهلا لا تقلقا لم يحدث أي شئ .. لقد تعمدت إخفاءها حتى ننتهي من حكاية التلصص والطرقات والتأويلات والكوابيس والملاحقات ولوحة عثمان التي دوخت الأهالي في مدشر(البير) حتى كادت أن تصيرخيمتنا محجا تعقد له المواسم ... أجل لقد قررت أن أريح الناس منها وأحررهم من الإنشغال بشئ هو أقرب إلي من حبل الوريد أكثرمن قربه لأهالي الواحة جميعا .. إنني لاأنكرأن لهم كامل حق السلالة في رؤية شبيها لجدهم الأكرم يتجدد في صورة عثمان التي شغلها الشيخ عبدالكامل في مرسمه بيد أنني من جهتي لي كامل الحق الشرعي والقانوني والطبيعي في تملكها وتوريثها لأبنائي وحفدتي وعثمان في النهاية هوأصغرأقاربي ولن أرضخ لحكاية (طارت معزة) مع مغامرآخر في هذا الخلاء القفر...وأرسل زفرة تتضوع بما تبقى في صدره من نسائم الصباح الحارة وأردف :

ـ لقد بت الليلة أبحث لها في الواحة عن مستقربعيدا عن عيون المتلصصين المغرضين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ... وأوشكت في البداية أن أودعها عند الفقيه سيدنا (الصادقي) ، غيرأنني عدلت عن ذلك أتعرفان لماذا ؟

وضعت فاطمة كوزالماء وكفت (ايزة) عن فسخ ندف الصوف الأسود وغمغمت :

ـ اممم ... علاش؟!

ـ لأن غرفة سيدنا (الصادقي) في المسجد يطرقها الأهالي والغرباء وعابروا السبيل واللصوص المتنكرين في مسوح التقوى ...

ـ وماذا فعلت بعد ذلك ؟

ـ نزلت إلى الواحة وتمنطقت بحبل جعلت طرفه الآخرعلى سارية البرج وصعدت وكانت تتهاطل على رأسي الحصوات ودسستها هنالك في كوة السورة وفجأة طارت حمامة من سرب الحمام الزاجل التي تقطن غيران السوروتنصت إلى زقزقات فراخها هنالك ولكم أسفت لضجرها ، ثم عدلت عن ذلك مخافة أن تكبرالفراخ وتلقي باللوحة بخبطة جناح على الأرض ويظفر بها أحد العابرين ... ونزلت البرج عبرالسارية مثلما صعدت .. اقتعدت على مرتفع حافة حوض الفصة ... ياأمي كم بدا القمرلحظتها متوهجا رائعا.. كان ينطق بأسماء الملكوت ويحرس بنوره صفاء الواحة.. كان يسري في صمت ثم يتوارى خلف غيمات شفيفة مثل غلالات الهودج ... ولاحت لي المقبرة على التل خلف مدشر(البير) وكان قبرجدنا

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

(بالمختار) رحمه الله يشرق ببياضه اللجيني الطاهرتحت شآبيب القمر...وعن لي أن أصعد هنالك ... قمت نشوانا وجذلانا بروعة وقدسية اللحظة ...
ياه .! ياه .! كانت لحظة من وحي سماوي ... آه يافاطمة كم تمنيت أن تصعدا معي إلى قبرجدنا (بالمختار) وقتداك...
ومسحت (ايزة) بيديها المعروقتين المتختمتين بحلي (النقرة) الخالصة على وجهها وهزت برأسها وهي تنبس بأدعية ، وأردف رحال :
ـ أجل قمت واجتزت الساقية الضحلة وتنصت لهسيس ورائي وظننت أن أحدا ما من المتلصصين يلاحقني فتوقفت .. فجأة هوت اللوحة من يدي .. لست أدري كيف حدث يا أمي كيف ضاعت من يدي .. وشرعت كالمجنون أفتش عنها في الظلام بين حشائش الفصة وأحجارالطوب الرخو، وكثيرا ما وقعت يداي على أشياء جهلت ملمسها حتى ظننت أنني افتقدتها وافتقدت معها وجودي بل وجودنا جميعا ...
وقالت فاطمة ملسوعة وتابعت (ايزة) معها في اندهاش ووجل وهل ... ؟
ـ مهلا .. مهلا..الحمد لله عثرت عليها في إحدى الحفر...
ـ وأين هي الآن ؟!
ـ لم أنته بعد من كلامي ، فقد صعدت التل إلى المقبرة وانتظرت حتى توارى القمرتماما خلف سحابة دكناء ثم أظلم الكون من حولي وشرعت أحفربيدي ، لففت اللوحة في خمارك الأحمرودسستها في حفرة ثم هلت عليها التراب... وكم ترددت قبل أهيل عليها التراب وأخيرا شعرت بقلبي يطمئن وبيد كبيرة ناصعة تنزل أمامي فقبلتها على الراحة والظهرثم انصرفت في زهو وفتح غريبين...
ـ بئس ما فعلت يارحال كان من الأولى أن تدسها في مكان ما في الدار... وهل ستبقى هنالك مدى الدهر ؟!
ـ هذا سرالأسرارأوصيكما بكتمانه ... وأحمد الله أن هداني إلى مكان آمن لن يخطرعلى بال أي أحد وهو أقدس الأماكن التي سنؤوب إليه جميعا في يوم من الأيام انشاء الله ...
صباح آخر يؤثث خيمته الزرقاء بعدوانية لهيب شمس لافحة وهبوب رياح الشرقي الذارية ناموسا وذبابا جسورا ، وحشرات تطن بأصوات الخمول والكسل المقرف والوقت البطيء...
صباح يجترلونه وحركاته وثرثراته على بوابة مدشر(البير) ...
خرجت فاطمة كعادتها للإستسقاء من البئرالتي تحولت مياهها الضحلة إلى سائل حليبي ...(ايزة) تهيئ حساء الضحى على القدرالمحموم فوق (كانون) النارالمنتصب على ثلاث أحجاروحشائش يابسة ...
الباب مشرع بالكامل ...
تتدحرج العيون على الأرض المتربة والجدران ... قال رحال في نفسه (لم تبق لديكم بعد اليوم حاجة للتلصص) ... ورغم أن الأمرلم يكن عاديا وأن حدثا هاما سوف ينتشل الأهالي من صهد العادات السيئة ورحى الإجترار، فإن حالات الإرتخاء القائظ كانت تقطرمن الشفاه التي تيبست برياح الشوم اللافحة ...
من بعيد يبدوعبدالله وخليفة قادمان ومتعجلان ...
اقتعدا مكانهما المعتاد ولملم كل منهما تلابيب دراعته لإطلاق آخرقذيفة أخبارطاجزة ، فجأة نط لسان خليفة من فيه كالضفدع وقال :
ـ الصورة اختفت أيها السادة .. لقد تعمدنا المرورمن أمام باب دارارحال واسترقت نظرة من الشق الواسع ، فلم أرى الصورة على جدارالمراح ... وقد شككنا في أمرالباب المشرعة ، إذ كما تعلمون ليس من عادتنا ذلك ونساؤنا تتلفعن خارج الداربأبواب سوداء نسميها (الحايك) ولاتبدومن فتحة برقعهن سوى عين واحدة إنني ... وقاطعه المعطي وهوينفجرضاحكا وبنبرة متثاقلة كمن مل من حديث جليسه :) أيوه إنك تعتبرها أبوابا متنقلة يحملها الحريم على أجسادهن ... وماذا بعد.. ايوا... قل أش كاين ؟
ـ فكيف برحال يترك الباب مشرعة على حريمه هذا الصباح ؟! هذه إشارة علنية وصريحة على نهاية حجاية اللوحة التي شغلتنا منذ شهور، ولولا شبه عثمان بجدنا (بالمختار) كما أكد لنا شيوخنا المسنون

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

لما أعرناها كل هذا الإهتمام الزائد عن اللزوم حتى ولوكانت صورته تمشي وتنطق ، فما العمل إذن ، أنترك رحال وشأنه أم نتمم طريقنا ونعلنها عليه قضية لاآخرلها حتى نجد لأمراللوحة مخرجا.!
وقال عبدالله بصوت حاد وصارخ كما لم يعهده أصدقاؤه من قبل :
ـ منذ اليوم اسمحوا لي أن أفوض نفسي لهذا الأمرفأنا أكثركم تفرغا في كل الأحوال وأيضا أنا أقربكم إلى عثمان حسب التراتب في شجرة النسب ...
وقاطعه الآخرون وطغى صوت العماري بينهم حتى أخرسهم جميعا :
ـ سداد الرأي أيها السادة أن نفكرفي اختفاء الوحش (حماد) والإسراع بالحسم في قضيتي ضحية زقاق (المدوز) والنخلات السبع ... أما فيما يخص اللوحة فمهما تطابقت ملامح عثمان مع جدنا (بالمختار) فالحمد لله كلكم سليلو تلك الدوحة الوارفة وأيضا كلكم حفدته المطوقين بشرف الدفاع عنها ضد رموزالفساد والبداية من الجلاد والسفاح (حماد) ، وأرى أننا قد أضعنا الكثيرمن الوقت في التلصص والتبصص من خلال شقوق وثقوب الباب من دون أن يستحيي لاعاقلنا ولاجاهلنا ... أيها السادة إن عثمان نجلنا جميعا بالرغم من أنه لايعيش بيننا في الواحة ، فهو في المدينة في كنف أبويه مولاي ادريس وللاكلثوم وأنا على يقين حسب رؤيا رحال في المنام أنه سيأتي زمن يطلع علينا فيه هذا الطائرعثمان شابا أورجلا يشرب معنا الشاي على صينية المعطي ...
ـ ومن أدراك أننا سنعيش حتى يكبرعثمان ونشرب معه الشاي تحت بوابة الواحة الظليلة!!
ـ على كل حال الأعماربيدالله يالمعطي ...
لاح على التلة شبح يعدوباتجاه بوابة مدشر(البير) .. ضاقت العيون واتسعت .. ودرأت الأكف الخشنة المعروقة أشعة الشمس كيما تنجلي النظرات ... إنه (الزربان) قام أحدهم وهويقف ليتقصى الأمرجيدا .
وقال آخر(ومالداعي للوقوف ،لاتكترث بقدومه ، متى كان وراء (الزربان) أمرهام حتى ننشغل عن صينيتنا بهرولته المخبولة ، هوكما تعلم دائما عداء ولاهث ومهرول وأبله وأعمى يسبق دائما قدره إلى قدرأتعس منه...
وصل (الزربان) يمشي الهوينا ويلتقط أنفاسه المتقطعة بخطوات ساقيه المنفرجتين الخشنتين اللتين تعلوهما قشرة مثل فلوس السمك ... انتصب وسط الجماعة وأرسل نظرة جاحظة ، منذهلة ومريبة وقال :
ـ حماد .. حماد..!
فقال أحدهم :
ـ مالو.. مالو.. شدوه (الجدارمية)!
ـ مصاب .. مصاب لوكان شدوه الجادارمية ..
ـ آشنو.. أشنو .. مات !!
ـ لا..لا..أخبرني رجل من (قصيرة) أولاد (بلقاسم) أن حماد مرق الليلة الماضية من جنب الحافة المطلة على فج للاعيشة (مولات الواد) واختفى ...
وقام فجأة العماري كما لومادت الأرض من تحته :
ـ فين .. فين .. ؟
ـ مانعرف آلسي العماري !!
وعض العماري على شفته السفلى وضرب بقبضة يده على راحة اليسرى في حسرة ونهر(الزربان) قائلا:
ـ يا وجه النحس ، دائما تأتيني بعد فوات الأوان وأخبارك دائما عرجاء مثلك ... إن كان ما قلته صحيحا فحماد لامحالة أنه يستدرج نفسه عن طيب خاطره ومن دون أن يفطن إلى إصفاد الدرك ...(وحام حول الجميع بنظرته التي بها مسحة حول طفيفة :) ومذكرة البحث التي أصدرتها مركزية الدرك في (الواحة) تلزم كل من شاهده بالتبليغ عنه وإلاّ كما نبهنا الشيخ من قبل يعتبركل من تسترعنه شريكا في جريمة ضحية زقاق (المدوز) وقال بلحاج :

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

ـ أرى أنه عليكم أن تتريثوا قد يكون هذا مجرد خبرملفق والغاية منه جس وترصد أسرارنا وعليه يجب أن نتبينه قبل أن نتسرع وبالتالي نسقط في نفس المصيدة فيجهزعلينا رجال الدرك قبل (حماد) ونخسربذلك سنوات أخرى بسبب تهورنا الذي قادنا إليه هذا (الزاربان) الأعمى ...
واقتعد (الزربان) قرب العماري يتمسح به ويتلحلح ... وبعد وقت قصيرقدمت خناثة بنت بلحاج بصينية الشاي وطلب العماري منها أن ترجع الصينية الأولى إلى دارخليفة . وشرع المعطي في إعداد براد الشاي الرابع .. وكانت نبتة النعناع قد أوشكت على النفاذ ونادى المعطي على أحد الأطفال وطلب منه أن يستقدم بعض وريقات النعناع من بيتهم وكان (الزربان) قد هم بالذهاب غيرأن العماري أعفاه من ذلك . واستوى في جلسته وشعربأن عليه أن يكفرعن خبره البائروقال : ماأزال أذكر جثة الضحية الواشمة وماأزال أذكر الجحرهنالك في دارحماد ..
كانت المسكينة ممددة على المعبرفي الفوقي ... أجل لقد رأيت الجحر بل لقد أدخلت يدي في جوفه ... كان جحرثعبان والجثة كانت داكنة ومثلجة ولاتبدوعلى هيأتها أية آثارمقاومة للعنف .. (وحدجه العماري بنظرة شزرمأنبة وأردف (الزربان) كما لوود أن يصحح كلامه السابق) : كيفما كان سبب الوفاة فالقضية بداية تتعلق بالفساد و(الحرام) والجثة لم تكن سوى برهانا إلاهيا لفضح ذاك الجلاد وكما قال الشيخ بالأمس (الله يجعل البركة في المخزن اللي دارشغلو).
انتهت جلسة الشاي أخرى ، وصارت قيعان الكؤوس قانية وطن على شفاهها الذباب والنحل ، واختفت ظلال الحيطان في مكامن قاماتها... قام العماري .. نفض مؤخرته وأخذ الصينية وانصرف وغادرالمعطي وبلحاج في اتجاه المنحدرلتفقد أحواض الفصة والحناء وتصريف حصتهما من مجرى الساقية الضحلة ... أما خليفة وعبدالله فقد مكثا في مكانيهما تحت سقيفة البوابة .
دلف العماري .. ألفى زوجته خناثة تغسل الأواني في جفنة خشبية ضخمة وكان يرقد على ظهرها ولدهما الأصغرعلي وقد تدلت رجلاه من الحمالة واشرأب برأسه على كاهلها وكانت جوقة من الذباب تتناوب بخراطيمها على منخاره الذي التصق به يباس المخاط الأصفر...سمع العماري القدرتغلي وتبقبق على فرن الحطب في (الكشينة) وعجين الخبزعلى الأدراج قد نضجت وحان أوان طهيها في فرن المدشر... وكانت السعدية قد ذهبت للإستسقاء من البئر.. قال العماري بصوت حانق:
ـ ألاتطرحين هذا (الجرو) من ظهرك على الحصيرقبل أن يقع في جفنة الغسيل ؟!
وردت خناثة بغضب واضح :
ـ لقد أبى أن يسكت وكلما هممت بطرحه يصرخ ثم أنت تعرف أن الفطام صعيب ...
ـ وأين السعدية؟
ـ لقد نزلت إلى البئرمنذ مدة وقد يكون مزدحما كما هي العادة وقت الضحى ...
وضع العماري الصينية في المراح قرب ميزب الماء العادم الذي يصرف إلى الخارج ويشكل مستنقعا أسود أمام الباب ... تمدد على الحصيرالمشغول من ألياف الدوم وساه نظره في تخاريم السقف القصبي الذي نخرت بعض دعاماته أرضات السوس وقطنت تجويفاته رتيلات (بوصيحة) . طفق يحدث نفسه في همس مسموع وكان أحد ذكورالرتيلات يدب مثقل البطن بين فجوة السقف والحائط وهمس العماري في نفسه : (كيف يعود هذا الوغد بعد كل هذه السنين .. ظننت أن القضية ستحسم لصالحي بسبب تقادمها وقد أوشكت المحكمة في (قصرالسوق) أن تنطق بالحكم الغيابي في حق الوغد (حماد) وأستفرد بالنخلات السبع ...) فجأة صاحت خناثة وهي تنتصب لتقوم رقاد علي على ظهرها .. نفضت يديها من فقاعات الرغوة وقالت : ماذا تقول .. ماذا حدث قل .. بالله عليك ماذا حدث.؟
ـ سوف نبدأ حجاية (طارت معزة) من جديد!!
ـ كيفاش .. كيفاش.. (وأردفت في همس) : أربّي ظهري تهرس بهاذ الزغبي اللي مابغا ينزل ...قال العماري :
ـ حماد.. مراللية في قعرالفج وردت في تعجب باد في قسمات وجهها ونبرتها .

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

ـ فين .. فين .. أجب فين ؟! أبعد كل هذه السنين ؟! ظننا أنه رحل إلى غيررجعة ، وأوشكنا على استرداد نخلاتنا .. آه ، لكن الكلاب مثل (حماد) لها سبع أرواح كما يقولون ...
ـ أجل ، أشعراليوم أن هاتفا ما في أعماقي ينبئني أنه مازال على قيد الحياة .. فقد زعم (الزربان) أن رجلا من أحد القصورالبعيدة رآه يسري ليلا في قعرالفج ...
ـ وماذا ننتظر .. تنتظرون جميعا يارجال المدشرإذن انتهى أمره وعليك أن تبلغ رجال الدرك يوم السوق المقبل . وصمت العماري قليلا .. هرش فروة شعره الأشعث وقال :
ـ أخشى أن يكون الخبرملفقا وبذلك تنقلب النازلة على رأسي وحدي وينسحب الآخرون ،علي أن أتريث فلربما اتضح الأمرفي الأيام المقبلة...
قلبت فاطمة الحمّالة على صدرها ، سوت رأس علي أمامها وكادت أن تغرس حلمة ثديها المتهدل في ثغره لولا أنها أدركت أنه في فترة فطام .. قالت :
ـ ولماذا لاتسخر(الزربان) إلى حيث سمع بوجوده ليترصده .
خفض رأسه بين راحتيه وتمتم بكلام مبهم ...

0-0-0-0-0-0-0-0

ذات مساء على التل الرملي ، وفي الطريق إلى البئرالتأمت الشلة .. كانت كما هي العادة ليلة قائظة .. كالحة ألقت بلحافها على نثارات النجوم واندس القمرفي غيهبه الأزلي ... هفهفت بعض النسائم الخفيفة الدافئة وريقات الفصة والنعناع واهتزت أنصال الأكمام .. استطاب العماري السمرمع المعطي وبلحاج وعبد الله و(الزربان) وغاصت بهم الأحاديث إلى أغوارالليالي السحيقة... فجأة تنصتوا إلى وشوشات أقدام حثيثة في سفح التل .. وبإشارة من يد العماري تكور(الزربان) كالجعل على المنحدر.. سمعوا انجرافه وتدحرجه حتى وقع في السفح ... لم يعثر(الزربان) على أحد .. ثم صعد على أربع كالدابة وقال العماري لعبدالله : ربما مرق الوحش في الفج ويبدوأن كل السبل قد ضاقت به حتما وهويخشى أن يستسلم للأهالي مثلما يستسلم ثعلب الصحراء حين ينهكه الهروب والعطش وهولامحالة سوف يتوقف في النهاية بمعنى سوف يستسلم
لنا ...
بعد أيام شاع خبرمروق (حماد) في (المدوز) الضيق المحاذي لباحة البئر .. وزعم بعضهم أنه إتروى من قلة السعدية غيرأنها لم تعبأ به الصبية ... ونزل العماري و(الزربان) ليلا إلى السفح وباتا يترقبان سريانه ...كان القمروقتئذ على غيرعادته أواخرشهرشتنبرساطعا تنهل المرئيات والنبتات ومدارج النخل وأحجارالطين والصعد والمنحدرات ـ من شآبيبه الفضية الجليلة ... أرهفا السمع وكان كلامهما في الغالب تهامسا وإيماءات رأس وأياد ... فجأة تدحرج شئ ما على المنحدرفحسب العماري أن غريمه قد تعثرفي مصيدته ولكز(الزربان) فتدحرج هذا كالصخرة على المنحدر... فألفى الجرف رهيبا ، عميقا غارقا في صمت مواته ...
تسلق التل الرملي من الجهة الموارية لسورالواحة فوجد العماري قد سبقه ببضع خطوات على الطريق فلحق به.
ما إن أشرقت شمس الغد حتى قدم الفقيه سيدنا (الصادقي) وأخبرالأهالي عند حانوت (العطار) اليهودي موشي أن عابرسبيل ما قد طرق باب غرفته واستجداه ماءا وطعاما ، بيد أنه لم يجرؤعلى فتح الباب إذ ألفى الصوت غريبا يرتد إلى الأحشاء هلوعا .
جعلت أخبار تطواف حماد تتردد على مجالسات حانوت العطاروبوابة الواحة الظليلة ... يتهامس بها الأهالي عند كل لمة عابرة أو طويلة ... صارحماد وحشا خرافيا يظهرويختفي ليلا بين هذا التل وذاك وبين فج وآخربين جنائن النخل .. في مكامن وملاذات الممسوسين والهائمين .. لاأحد رآه مرأى العين غيرأن كل القوم يتحدثون عنه حديث الواثقين الصادقين ...

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

استعرت نارحيرته وشكوكه.. كان كلما سمع هسيسا أووشوشة أوتدحرج حصاة خال أن (حماد) هنالك وله بالمرصاد... كان يخرج ليلا بعد مسامراته مع المعطي و(الزربان) يشرعان في دوريات خفرفي كل مكان متواري مشبوه . قال العماري لجليسيه : أتدرون يجب علينا أن ننصب له الكمائن في كل غيرانه المعهودة من دون أن نغامربإبلاغ رجال الدرك عنه قبل أن نلقي عليه القبض . وخبط بيده على جذع النخلة السابعة ورفع رأسه إلى أكمامها ثم ضمها إليه بما ملك من قوة وأردف بغيظ وحنق حتى نزت عيناه ببريق الدمع: أقسم بشرفي وشرف كل الواحة أنني ما حييت لن أدع هذا العهد ــ وربت على (النخلة السابعة) ــ الذي بيني وبين أسلافي للفاسق والجلاّد (حماد) ... سوف ألاحقه أينما حلّ وارتحل حتى أسترد منه نخلاتي وأمسح عن هاماتناعارفاحشة زقاق (المدوز) ...

وقفز(الزربان) كعادته قائلا : وأنا أعاهدك على مؤازرتك إلى نهاية قضية (طارت معزة) ...

وتابع المعطي : ونعاهدك أيضا إذا ربحت النازلة وانتصرنا على رمزالفساد أننا سنقيم عيدا للأهالي في الواحة يمتد على مدى عشرة أيام ...

ـ بل على مدى شهرقال (الزربان)

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

ذات ظهيرة .. خمدت تحت شمسها البيضاء الحارة كل المخلوقات ... وأطلقت رياح السموم شياطينها المارجية .. شعرالعماري لأول مرة بروع الوحدة أمام فوهة الشمس ، ولاحت من بعيد التماعات السراب المتراقصة على البسط الرملية مثل أدخنة شفيفة تتماوج من خلالها النبتات ... وكانت المقبرة على التل هادئة راقدة في صمتها الملغزوجمرات أحجارالطوب الرخوة اللاّفحة...

كان كل شيء من حوله يشي بالأرض الموات ... استند نخلة .. خلع طاقيته الرمادية .. وضعها على ركبته ثم بعد حين راح يلوح بهـــا لدرء الصهد واستحلاب جرعات البرودة المنعشة ... فجأة لاح له بين سيقان الحشائش العطشى طيف يختال مثل حيوان جريح ...استوى في جلسته .. كان الشبح يتقدم إليه بتوأدة وترنح .. فجأة انتصب واقفا .. اعتمرطاقيته .. لم يتبين في البداية ملامح الوجه الملفوح إذ كان زغب اللحيةِ المنسدلةِ الكثيفة يغطي كل الأساريروالقسمات ، وكان لهيب الشمس يضرب على المحيى مسحة ملغزة وشفيفة وكانت العينان ترفان وتبرقان بشرارة غريبة...

تقدم بضع خطوات حتى دنا من العماري .. انتصبا معا على ممشى الحوض .. تقدم كل منهما في إتجاه الآخرحتى صاراعلى بضع خطوات وجها لوجه ..أمعن العماري النظرفي عيني الرجل الغريب وأدرك على حين غرة أنه بصدد الوحش (حماد) ـ (أية صدفة ركبّها الدهرفي هذه الظهيرة الغامضة !! ودارت لحظتئذ في خلده كل خطط الإطاحة .. فالصيد ثمين .. وقد يرفعه نصره درجة أشرف وأجل عند الأهالي ورجال الدرك ...وقد ترقيه السلطة شيخا أوعونا إذ أنه وفرعليها الكثيرمن الجهد والأتعاب في التحري والترصد وحشد المخبرين ... لكن كيف السبيل إلى الإيقاع بحماد في هذا الكمين الثمين .. أين الوغد (الزربان) الآن؟!

والمعطي ووعده؟!والآخرون ؟! تبا لها من ساعة سيئة .. هكذا دائما تخونني الساعات وتهزؤ بي المواعيد. .. أين رحال ليحكي للوحش عن مأتم (وردة) وعن الجنيات التي سكنتها بسببه؟! أين عبدالله وخليفة وأين (الزربان) الذي يلبي أوامري برفة عين أوفرقعة أصبعين مني ؟!

ظلا متسمرين .. منتصبين .. يتمليان بعضهما بعضا لوقت طويل من سيبادربالكلام .. ومن أين ستكون البداية إذن وأي كلام سليق بهذه المبارزة !! استجمع العماري أنفاسه وقال باعتداد عال:

ـ كان عليك أن توفرعلينا وعلى نفسك تعب كل هذه السنين من الفرار.. أليس كذالك أيها المجرم .. أيها الجبان .. أيها الفاسق !!

ـ ورد حماد بصوت منهوك به حشرجة غريبة .

ـ كيف حالك يالعماري ؟ ـ ودنا خطوتين منه كما لوود أن يصافحه ، غيرأن العماري تراجع حتى حاذى ظهره النخلة السابعة وقال بزفيرثورهائج :

ـ ها أنا أخيرا أعود إليكم وقد جئت مجئ الفرسان الشجعان لأتنازل لك عن تلك النخلات التي تتكئ عليها .. جئت لأريحك وأريح الأهالي من ثرثراتكم الواهية التي التهمت أعماركم في غيابي ، وأعترف للمخزن بتفاصيل الضحية في زقاق (المدوز)...

وأجابه العماري بنبرة استخفاف واحتقار:

ـ ماكان عليك إذن أن تختال بين الأحواض كالثعلب الجريح ، بل كان عليك بادئ ذي بدء أن تخرج فينا خروج الشجعان كما تشدقت قبل قليل وكان عليك أن تذهب رأسا لتبيت في البنيقة عند (الجادرمية) عن طيب خاطرك ولاتنسى أن أهالي الواحة جميعهم قد علموا بتخاتلك منذ أيام في هذه الجهنم ... فماذا تنتظرلتقدم يديك لأصفاد الإعتقال كما يفعل الشجعان ؟!

أطلق (حماد) زفرة طويلة .. مسح عرق جبينه وقال :

ـ كنت أبحث عن سبيل للخلاص الذي يليق بمقامي ويجازف في نزالاته الأبطال مثلي ... ثم ما الفائدة من أن أبقى تائها بجسد تدميه قروح ودمامل الزمن وتكالب الجفاف والعقم والنميمة وثرثراتكم عند البوبات وفخاخ الأوغاد مثلك...

ـ لقد كنت على وشك أن أنهي رهان (طارت معزة) وقد كان بوسعك أن تتخلّى عن عنادك معنا وترفق ب...

وقاطعه (حماد) بصوت واهن : بالمرحومة (وردة) .
ورد العماري باستغراب :
ـ وكيف بلغ إلى علمك أن المسكينة قضت بسبب بطشك وسطوتك حتى سكنتها العفاريت ؟!
إثرئذ أرسل (حماد) قهقة استسخارحتى بدت أسنانه التي نخرتها السوسة والبقع البنية:
ـ أجل المرحومة قضت نحبها في بيت مولاي ادريس بمكناس ... ليس هناك أهون على مسمعي من أسراركم ، تنسون وأنتم تحت ظل البوابة متحلقون حول صواني المعطي أنكم عراة ومتكشفون من دون جوخ ودراعات ... فقد كنت أعلم بأسراركم وخططكم أولا بأول منذ هروب (وردة) ووجود الجثة في غرفة الفوقي واختفائي عنكم ...
ـ حسنا هذه أول اعترافاتك إذن ...
ـ لك أن تسميها ما شئت .. ثم أود أن أخبرك أنني سأسلم يدي غدا لأصفاد الدرك وأبيت في البنيقة كما تمنيت ولكن ليس بعد أن أحسم معك في الرهان على (طارت معزة) وضحية (المدوز) ...
وردالمعطي بنبرة تعجب بالغ :
ـ كيفاش .. وماذا بقي لك بعد كل هذه الآثام والفواحش ؟!
ـ صدقني أنني تزوجت الضحية بالكتاب والسنة خلسة حتى لا ينهارما تبقى من صرح العائلة في الواحة واتفقنا مع (وردة) على عدم إفشاء السرحتى للأهالي إلى أن يرزقنا الله بابن منها ونستريح وتستريحون من لغوكم عن حجاية عقم (وردة) ... إنكم قد أكثرتم على (وردة) بافتراءاتكم وأسرفتم كثيرا في نهش جسدها بنميمتكم الخاوية ... وأنا قدعانيت من جفاف مضاعف .. أنسيت كل هذه الأقارالتي حاقت بي يالمعطي؟!
ـ ها.. ها.. ها هاذ الشّي ما تقولوليش أنا غدا قولو للجدارمية .
ـ صدقني ياالعماري أنني مازلت على العهد الوثيق مع (وردة) وموت (الضحية) في بيتي كان قدرا محتوما يمكن أن يقع لكل بني آدم وأنني عازم بعد التنازل لك عن النخلات السبع على عدم التفكيرفي الزواج مرة للمرة الثالثة حتى أثبت للجميع وفائي ل(وردة) ... وها أنت كما تراني أمامك ـ ورفع يديه إلى الفوق تعبيرا عن استسلامه ـ فقدت كل شيء في هذا العالم وصرت أعيش بينكم عيشة الغرباء ... فكيف تتنكرون لرابطة الدم معكم ؟؟
ورد العماري ساخرا :
ـ لست منا ولسنا منك .. فمن تكون .. من تكون الآن أيها الثعلب ؟! لست أرى أمامي سوى وحشا كان ولازال اسمه (حماد) .
أرسل (حماد) تنهيدة عميقة وقال :
ـ إنك قد أكثرت علي وأيضا على (وردة) و(الضحية) ـ قد أكثرت بتنصيب نفسك منصب المدعي والقاضي ... وقد قلت لك قبل قليل أنني سوف أتنازل لك عن النخلات السبع .. ودنا من العماري ومد إليه يده ليصافحه وبدت أظافره طويلة مثل مخالب نسرومعفرة بسواد الأدران ورغم ذلك فقد كانت تشرق كالتماعة النصل تحت شعاع الشمس ...
راودت العماري أفكاروأخيلة : حماد مصفدا يوم قيامة السوق .. خفيض الرأس .. حسيرا .. تطوقه نظرات التشفي وعبارات الخزي والعارخلف قضبان قفص (اللاوندروفير) في ساحة السوق .. ثم ها حبل المشنقة يتدلى من سماء العدالة الإلاهية... وما كاد العماري أن يستفق من استيهاماته وشروده حتى انقض عليه (حماد) كالوحش الضاري ووقعا معا على الأرض وشرعا يلتفان على بعضهما البعض .. يتكوران تارة وتارة ينقلب جسد هذا على جسد الآخر .. بدأت المعركة إذن ... شرارت السب والقذف النابي تتطايربينهما كالقذائف .. دراع حماد المفتولة تطوق عنق العماري بقوة حتى احمرت وجحظت عيناه واندلق الزبد من فمه وأطبق عليه برائحة الضباع القاتلة ، ثم فجأة تدحرجا على المنحدرالرملي وثارت حولهما زوبعة رملية غاص في قرارتها صراخ العماري مستنجدا برفقائه ـــ المعطي (الزربان) ،عبدالله ، خليفة ...

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

بعد برهة ، ساد الأكمة صمت رهيب ... خمد الجسدان معا و سكنت الزوبعة .. صوت العماري يخورمثل ثورجريح ، ثم بعد حين بدت قامة (حماد) واقفا في قلب الزوبعة منتصبا فوق رأس العماري بعينين منكسرتين .. تخفيان انتشاءا يومض بالنصر.. وفي لحظة غادرالأكمة باتجاه المقبرة...

0-0-0-0-0-0-0-0

توارت الشمس خلف سحابة دكناء .. ألفى (حماد) الأرض هامدة كما لم يعهدها من قبل .. اقتعد صعيدا متربا .. كانت جثة العماري ساكنة هناك في السفح .. وقد تعفرت وجنتاه بالتراب .. شعرحماد أن العالم كله قد أوشك على النهاية وبالنهاية التي ترضيه وتسعده ...
بعد أن استرد أنفاسه .. نزل مسرعا وكأنه لم يشف غليله ، حمل العماري على كتفيه من خلف رقبته مثلما تحمل الأكباش .. تسلق التل الرملي ثانية .. وكانت قدماه الحافيتان تغوصان في الرمل اللافح .. كان يدب ..
أحس فجأة كما لوأنه لايحمل أي جثة حين تذكرالمرأة التي ضحت من أجله برحمها الرؤوم .. والثعبان الأرقط الكامن في جحرالدارخلف أكياس التمروالحناء .. تذكريوم غادرالبيت يبحث عن (وردة) .. تذكرحين كان يسيروهويلعن زقاق (المدوز) .. وعيون الأبواب وآذانها .. تذكر جدب المفازات وسرابها ..عطشها القاتل الذي لاينتهي .. ليلها وزمجراته .. تذكرسنوات عزلته القاتلة .. تذكرالموت الذي كان يتربص به على التخوم الشرقية البعيدة ... تذكر سنين التيه القاتل .
أرسل زفرة طويلة .. ارتقى تل المقبرة .. استند قبر(بالمختار) ... أخذ نفسا عميقا .. تملى زرقة السماء .. وأنصت إلى الصمت العميق الذي جعل يغمرأعماقه .. صمت المقابرحيث تتبدى في أسمى تجلياتها النهايات القاسية على شواهد القبور... بدت شفتاه تتحركان بحشرجة مبهمة .. رنا إلى قبر(بالمختار) .. ثم أغمض عينيه ولاح له طيف (وردة) مثل ملاك يختال بين جنائن النخل الحبلى بعراجين التمور .. فتح عينيه كالمخموروعلى حين غرة هوى على شريان معصمه بالسكين ... طاش الدم أمامه وامتزج بتراب المقبرة ...
آه .. يا وردتي لورأيت هذا الدم يفورهنا والآن ... دافئا نشوانا بالرحيل .. كان من الأجدى أن يفورعلى قبريكما ... أنت كنت لي الحقيقة الإلاهية وكانت (الضحية) وهمنا القادم من مواسم الخصب والعشق البدائي المأمول... آه .. كم كانت سماء الواحة عنيدة فوق بيتنا... من يصدق ياسيدتي حكاية سنوات الجدب القاسي .. هل كنت حقا وحشك الضاري الذي كان ينفث أنفاسه على جسدك مثل التنين يا(وردة) ... ها أنذا قادم إليك حيث سيكون بوسعنا ولوحدنا معا أن نعيد الصعود ثانية إلى شجرة فاكهتنا المحرمة ...
خططت بالطبشور على باب حانوت الشيخ عبدالكامل ... خططت سؤالا صارأزليا بالنسبة لي ولخالي المهدي... سؤالا معلقا بين الشباك العالي وحدقة المفتاح ...
(انظر دائما إلى الأفق .. إلى حيث القمر .. القمردائما في العينين).
رحلت أيها الشيخ وأودعتني للفقدان .. لن تكتمل إذن بعد رحيلك حكاية التعالقات السرية بالأرض .. باللون..
والدم .. ومواثيق الإرتباط ...
منذ سنين ياشيخي الجليل وأنا أتردد على بابك الخضراء الموصدة .. كانت بابك ياسيدي عتبتي المقدسة التي كنت نحرت عليها كل قرابين الطاعة والإخلاص لك ...
كنت أنفذ ببصري من خلل حدقة المفتاح فلا أرى عبرالبؤرة سوى رسما لحصان أبيض عارمن صهوته ..فاردا جناحين في أبهاء الشفق القاني ... مازالت تنفذ من خلل الشقوق رائحة الطيب .. وبدت على

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

المنضدة الواطئة بين صحائف أخبارالأولين وطاولة مسند التصويرالعتيقة.. مغبرة .. تعلوها بعض خيوط العناكب المزمنة ..
(انظر، دائما هنالك في الأفق ، حيث يتربع القمر..) . صورة لن تتكررفي عيني ماحييت ـ همست لعمروزينب ..
عمركبروبدت قامته أكثرمن سنه ونال شهادة الإجازة في شعبة الآداب ، وزينب حالمة مرتفقة الشرفة المسائية تنتظرفارسها الذي سيأتي أولايأتي على صهوة شمس المصيف من بلاد المهجر... وبالرغم من أن المهدي قد أهداني لوحة (دموع البراءة) للرسام الإيطالي (ميكيل أونطونيو) فإنها لم تعوضني عن فقداني الأليم للوحتي الحقيقية ... قلت : هل يمكن أن تعوض باقة ياسمينة باقة زنبق ؟!
سافرالمهدي إلى (أوكرانيا) بعد أن زاغ قطارأحلامه الجنوبي عن سكته وزاغ حلمي أيضا في السفرمعه إلى (الواحة) وتحديدا إلى قصر(البير) للبحث عن لوحتي ...
مازال السداري مكانه .. قبالة الجدارذي المشجب اليتيم ... ومازلت أذكرليلة التأبين ورحال ولازمته الخالدة (كن رجلا .. كن رجلا...)
مرت السنون .. كنت كمعطوب حرب بترت ساقه أو ذراعه أوأي عضو منه بعد أن افتقدت صورتي وافتقدتني ومع مرورالزمن غفرت لرحال جرمه .. كيف أحسست بالصفح عنه .. لست أدري ؟...
انقطعت عنا أخباره منذ وفاة (وردة) وكم كنت أترقب عودته يوما ما ... حكى لي (بلقايد) مرة أنه شاهد اللوحة معفرة بتراب (البلاد) ثم شاهدها في نفس اليوم تتناقلها الأيادي في مقهى (بوخرصة) ومنذ ذلك الحين لم يشاهد رحال ومن المرجح أن العلاقة ساءت بينه وبين أهالي الواحة...
ذات صباح ، قمت على غيرعادتي باكرا ... كان شيء ما يرف في رأسي .. شعرت بانقباض شديد .. وذبيب وساوس تطن في أذني .. كان بي إحساس يتوق إلى الشساعة المترامية أبعد من الآفاق وكأن هاتفا ما يهتف بي ..
اختلست المفتاح من شكارة والدي .. مددت يدي إلى المتجرفي الصوان واختلست قدرا قليلا من الأوراق المالية ...أغلقت المتجر وأعدت المفتاح إلى موضعه...
تسللت دالفا عبرالزقاق .. ألقيت نظرة على بابنا .. ومشيت ... مشيت هكذا نزل قرارالسفركالقدرأوالوحي الإلاهي.
مررت (بمدزرة)الحاج الشبيهي الزرهوني وأخبرته أنني سأرحل إلى الجنوب لابد أن أرحل إلى صورتي وسوف أعود عما قريب.
كانت الناقلة رابضة كما هي العادة كل أسبوع بساحة (لهديم) .. نفس الناقلة .. نفس اللون والعجلات المتآكلة والمقاعد المخرومة والسائق والكريسون .. نفس الوقت في الذهاب والإياب أيضا.. بدت الناقلة متهالكة أكثر مما رأيتها يوم جئت مع والدي لنشيع رحال قبل سنين...
تحللت من كل ملابسي الثقيلة .. قررت أن أرحل إلى أين سوف أرحل .؟ كأنني سأرحل إلى جزيرة الشمس .. الواحة التي لاأعرفها .. ولكن هجرتي مأتم كل المآتم الأليمة بعد مأتم لوحة الشيخ عبدالكامل .
همست لنفسي وأنا أمام المرآة : ليس أمروأفضع من أن يحيى الإنسان من دون سيماء تذكره في لحيظات زهوه بانتمائه الأبدي..هناك إذن سوف أعثرعلى بعدي الحقيقي ، فقد كنت أمام ذاك الجدارالأخرس وهما لايقدرفداحته إلاّ ملتاع مثلي ...
(القمرما زال في العينين هناك في الأفق ...) آن إذن أن أرحل ...
كنت مدججا بكل المبررات القديمة .. استقلت الناقلة .. نفس الناقلة التي حملت جسد (وردة) المقهورمنذ سنين وكانت متنكرة في زي المهانة ... ربما أنا الآن أقتعد ذات الكرسي الذي إقتعدته قبل سنين .. فجأة شرع الزمن يرتد بي ، مثلما ترتد أشجارالأرزعلى حافات طريق (إفران) الباذخة، حيث جبال الأولمب الأسطورية التي تسكنها ربات الجمال والعشق الأمازيغي العنيف .. وتصدح في قممها وفجاجها أوتار (الكنبري) وانسيابات مواويل (شيخ الدوار) تتصادى مع فحيح رياح المغارات والكهوف العميقة

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

وتنفجرقهقهات شقائق النعمان بين اختراقات الظلال في المعابرالملتوية اليانعة التي تنكمن في انعطافاتها ماسات ويواقيت صخور(الغرانيت).
كنت أرسل ناظري في كل هذه الربوع الفاتنة .. يناعة المروج والفجاج العميقة المثقلة بالأسرار... تضاريس الدهشة ، كنت مثل مخلوق يعبركوكبا عدنيا لأول مرة .. كوكبا يتأثث من قلائد السديم العذري ...هل تتسع حدقتاي لكل هذا البذخ الأطلسي الفاتن .. ومن بعيد جعلت تلوح تورمات الكثبان العسجدية .. كانت شهية المرآى .. حين انسكبت عليها شلالات الشفق مشوبة بغلالة المساء البنفسجية الجذابة ... رأيت أعناق النخل مثل عرائس بحورالبيد التي عمدها الدم الممجد في ليل الدهشة الأولى ... جعلت تضاريس المفازات تلقي ببسطها العسجدية من تحتنا .. توقفت الناقلة مساءا وسمعت في جوف ظلامها العون يصيح (عندكم ربع ساعة.. اللي تعطل يبقى هنا...)
نزلت ..وكنت لأول مرة أشم رائحة الرمل .. دفأه .. كان المكان يغرق في ظلام البدايات .. نورواللمبات الخافت يسقط عليلاعلى الحيطان الطينية والكونتوارالإسمنتي المرتجل.. كرعت من خابية كبيرة قدحين من الماء القليل..
طلبت عشاءا .. بعد برهة قدم لي نادل صغيريرتدي دراعة مخرومة عند المؤخرة وكان يخلع طاقيته البنية بين الحين والآخرليهرش جلدة شعره المرقطة بثقوب (التونياء) ، طلبت بيضات مطهية ومنقوعة في الزيت البلدي وبراد شاي من معدن (الجالوق) الأبيض ذكرني ببراد عمي الشبيهي الدرازالذي لايفارق أدوات نبتة (الكيف) (العود،الشقف،المطوي،الغربال مسحوق الكيف،القرطة وسكين بوضلعة) .. كان بعض الركاب في ركن المقهى يتحلقون حول طجين خمنت أنه من لحم العنزة المخضربااللفت ، رأيتهم يجهدون أفواههم الواسعة في لوك شرائح اللحم كأنما يلوكون قطع مطاط العجلات .. كانت أفواههم تتلوى مثل مضغات خرفان في لحظة اجترارجماعي في صمت الليل... كل شئ أمامي في هذا العالم الليلي مرتجل .. كل ماتراه العين يعبرعن تلقائية وعفوية لاتنضبط لدكتاتورية مسطرة وبركارالمهندس في المدينة .. كل شئ هنا يبدوكأنما خطته يد في لحظة إنتشاء طبيعي .. طاولات متهالكة رفوف سريالية .. سقف من قصب مثل سطورورقة دفتر.. رأيت صورا قديمة مرقطة ببرازالذباب الأزرق : صورلأم كلثوم، فريدالأطرش، محمد عبدالوهاب، ، جمال عبدالناصر.. المارشال قيبو.. تحت الكونتواركانت تصدح أهجوزة أمازيغية خمنتها من صاعدة من مذياع (ترانزستور) متحشرج ... شعرت باغتراب وخالجني إحساس بالنفي .. أشفقت على صوت المغني الصاعد من مذياع (الترانزستور) وخمنت أنه يغني عن الغربة من دون شك ... ألفيت وجهي على الواقية الزجاجية المخصصة (للفائف الملوي) .. بدت ملامحي وأساريري وقسماتي أكثرتعبيرا ووضوحا ... شعرت بانتشاء غريب ولذيذ .. توحدت ظلي إذن مع هذه التربة البعيد في جنوب القلب .. (ما أجمل أن نتوحد جميعا تحت سقف الإرتجال .. الإرتجال أبهى وأصدق !!) .. نسيت أنني راحل إلى لوحتي التي هربها رحال غداة تأبين (وردة) ..إلى التخوم الدم التي نمقت حكمتها يد الشيخ عبدالكامل ...
زعق زمورالناقلة ، طفق الركاب يمتطون الواحد بعد الآخر ... فجأة وعلى حين غرة وجدتني جالسا إلى جانب شاب في مقتبل العمر.. سألني وكانت سبابته منغرسة بين دفتي كتاب أحمروعنوان أصفرتتوسط غلافه علامتا مطرقة ومنجل ..
ـ هل تشرب ؟! وقدم لي قنينة ماء .
قلت :
ـ شكرا .. شكرا.. (تجرعت رشفة) ثم سألني ثانية:
ـ إلى أين رحلتك ؟
قلت :
ـ إلى (الواحة) وتحديدا إلى قصبة (البير)
ـ في عطلة أم دورة سياحية أم مهمة أخرى ...
ـ قلت في مهمة إستثنائية ...

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

تزحزح في مكانه وبدت عليه علامات إهتمام بالغ .
ـ أية مهمة ؟
ـ سوف أنزل بالواحة لاسترداد لوحتي الفريدة ؟
ولاحظت على محياه علامات استغراب مرة أخرى وقال :
ـ أية لوحة ، وهل يمكن لأنسان مثلك أن يقطع كل هذه الخارطة القفرالموحشة من أجل لوحة ؟!
فأجبته من دون عناء تفكير :
ـ أجل ليس هناك ما يدعو للإستغراب ... وعلى كل حال كل منا هنا في هذه الناقلة ماض إلى شيء يخصه ، قد يبدو له مهما بالقدرالذي يبدو للآ خرين تافها ..
ـ وعن أية لوحة أنت مجازف في هذه الرحلة القاهرة ؟!
ـ إنها لوحة صورتي ، افتقدتها غذاة مأتم عمتي (وردة) منذ سنين وبالتالي افتقدت معها كرامة الشيخ عبدالكامل في أعتق حانوت في حومة (قبة السوق).
تزحزح قليلا كأنما أراد أن يسوي جلسته وبدا في عينيه بعض اهتمام وقال:
ـ ألأجل لوحة قديمة تمضي في هذه الرحلة المحفوفة بالزوابع والأعطاب وعلى متن هذه الناقلة المهترءة !! أرسلت تنهيدة وأردفت :
ـ بالضبط قلت لك قبل قليل أننا ماضون جميعا في هذه الناقلة إلى غاياتنا المتباينة ، قد تستخف بأمررحلتي بيد أنني لاأخفيك سرا أنني أشعرأنني أمضي في رحلة العمر... منذ سنين ومأساة فقدانها تكبرفي أعماقي مثل شجرة صبار...إنها لوحة ليست كاللوحات .. لوحة فيها من بركة يد الشيخ عبدالكامل مالم تحظى به لوحات أخريات ...
أرسل ضحكة استخفاف اهتزلها صدره تحت سترته الحمراء وقال :
ـ كان بإمكانك أن تحصل على لوحة أخرى في مرسمه وتريح نفسك من عناء هذه المجازفة .
ـ مع الأسف كانت الأقدارأقوى من نواياي ومطامحي ... حدث لي مايمكن أن يقع للبشرجميعا حين يفتحون أعينهم على العالم ولايجدون أسلافهم من حولهم ... فقد انتظرت رجوع الشيخ عبدالكامل من رحلته لكن دون جدوى .
ـ وأين رحل الشيخ عبدالكامل ؟!
ـ زعم بعض التجارمن معارفه أنه رحل عبرسبتة إلى الحجازمشيا على الأقدام لينال تواب الدنيا والآخرة في مكة المكرمة .. وزعم آخرون أنه أبحرإلى مالقة في إسبانيا ليعمل في إحدى المطابع العربية في وحدة للتصفيف .. وزعمت طائفة ثالثة أنه رحل إلى دارالبقاء ومن المرجح أن يكون قد قضى نحبه رحمه الله ... صمت رفيقي وتركني لاستيهاماتي الليلية ... كانت الأسبلة تمتد أمامي كالحيات الرقطاء ... إرتجلت سؤالا وقلت له كي أطردعن ذهني وساوس التفكيرفي لوحتي والأستمرارفي الحديث معه : وأنت إلى أين ؟
فأجاب بكل بساطة :
ـ أنا طالب في جامعة محمد الخامس بالرباط .. شعبة علم الإجتماع .. أقطن بالريش ومنطقتنا تغريني بتنميطها التضاريسي وجوها القاري الثابت إذ من اليسيرعلى كل طالب مثلي أن ينجزأبحاثه في مجال إجتماعي وجغرافي قاحل ولاتتغيرطبيعته على مدارالسنة ... بعد برهة صمت ثم (أشاح بوجهه جهة الشرق وأردف) أنظرالكثيرمنا يجهل أن هنالك تنكمن ثروة المغرب عكس ما روج له الإستعمارالبغيض بما سمي ب(المغرب غيرالنافع ...) إن شعبة علم الإجتماع هي مجال الأرض والإنسان والمحيط .. الأرض بمكنوناتها ومكوناتها الجيولوجية والإنسان بانتمائه لمجاله الجغرافي والمحيط بحمولته الإجتماعية والتاريخية والأنتربوجية وكل هذا يحدد ملامح هويته... بيد أن فرص تعميق البحوث العلمية نادرة جدا عندنا والميزانية المرصودة لذلك شحيحة وبالتالي تظل الجامعة على هامش مجالها السوسيواقتصادي ... ولهذا فأنا أفضل أن أقضي عطلتي ورخصي في منطقة (الريش) كيما

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

أستغورعوالمها الجغرافية والتاريخية وبأقل تكلفة مالية ...إنني أقضي جل أوقاتي على ظهربغل جدي متنقلا بين الدواويروالتضاريس الوعرة والتجمعات السكنية في القصورالنائية ...
وقاطعته قائلا :
ـ هذه وجهة نظرمقبولة ، لكن دعني أسرلك أنه ما إن يحصل الطالب القروي على دبلومه العالي في أي شعبة من الشعب العلمية حتى يتنكرلأحلامه الثورية الجامعية ووعوده التي وزعها على قبيلته في الولائم الصيفية والحملات الإنتخابية وسرعان ما يغرق في متاهات المدينة بين حاناتها ومقاهيها ومواخيرها ومتاجرها ثم يتزوج في آخرحلقات تسكعه بآخرالنساء التي تدخل بيته في أرقى شارع ثم يغرق في دوامة تجهيزالبيت وفواتير الماء والكهرباء وكارني البقال .. و.. و.. وحين يزوره قريب قروي ما من مدشره البئيس تنهره زوجته من البالكون وتقول له بأعلى صوتها وعلى مسمع الجيران (ماكاينش)... وهكذا تحلق مثل وأطروحات البحث الجامعي في مهب الرياح العقيمة ... أنظرمثلا إلى هؤلاء الفرنسيين أساتذة ومهندسون وأطباء القاطنين في أنئ المدن المغربية قد علمونا كيف نقبل على الحياة حتى مجتمعات غيرمجتمعاتهم الأصلية في الوقت الذي يتنكرفيه مثقفونا لانتمائهم الطبيعي وينسلخون عن جلدهم الحقيقي مثل الثعابين ...
تجرع رفيقي من قنينة الماء ثانية وقال وهويشيرإليها وفهمت من إشارته أن ود أن يحورالحديث حتى لانسقط في جحيم موضوع الهجرة القروية :
ـ هنا سوف تندلع الحرب العالمية القادمة في القرن القادم .
ابتسمت واستفسرته بنبرة ساخرة :
ـ كيف ، هل سوف تنحشرالبشرية كلها داخل هذه القنينة في نهاية القرن القادم ؟!
ـ أجل ياصاحبي بمعنى ما إذا ما تصورنا الكرة الأرضية مثل زجاجة ماء كروية الشكل ، ألا تشعربالعطش كلما توغلت الناقلة بنا في التخوم الجنوبية ... إنها نفس حالة العطش سوف تقع للعالم وهولامحالة ماض إلى جنوب عصرالعطش ...
وبدا كما لوأنه يود إقفال الحديث بأية طريقة وقال .
ـ على كل حال فالأهالي في الجنوب متعودون على كل الكوارث الطبيعية (الأوبئة والجفاف والجراد والفياضانات و.. و... وسياسة السدود الحكيمة وناجعة قد تؤمن لنا حاجاتنا من مياه السقي والشرب وبالتالي التحررمن التبعية الغذائية والمهم من كل ذلك أخيرا هوحسن تدبيرهذا الذهب الأزرق ...
كان كل الركاب وقتئذ يغطون في رقادهم الجماعي ... بدا وجه السائق (بلقايد) في المرآة العاكسة فوق الواقية الأمامية مروعا ووجلا ، وكانت أطياف دخان العادم تتسرب من كل المنافذ والشقوق كالحرائق التحتية ثم أحسست أن سرعة الناقلة جعلت تتناقص وتنزاح شيئا فشيئا إلى حافة الطريق .. كان موقفا أوحى إلي لامحالة بعطب ما لم أشك في أنه يتكرربين الحين والآخر..أسكت (بلقايد) المحرك .. نزل .. تثاءب كما هي العادة دافعا بكوزبطنه إلى الأمام حتى كادت أن تنفرط أزرارقميصه .. أشارإلى الكريسون أن يفتح صندوق المعدات واللوازم .. وطفق يفتش عن قطعة غيارمستعملة والركاب البدومازالوا يغطون في نومهم وكثيرمنهم لايعلم أين ولماذا وهل توقفت الناقلة أم هي ماتزال سائرة ... وبعد لحظة سمعت الكريسون يستشير(بلقايد) وبدا أخيرا أنهما توصلا إلى رأي واحد وقررا أن يواصلا الرحلة بنفس العطب الميكانيكي القديم حالما يفرجها الله بناقلة جديدة ... وسمعت شيخا خلفي يتحدث لولده عن الناقلة والسائق (بلقايد) وأردف الشيخ أنه يتذكركل شئ عنها منذ أواسط الخمسينات .. كانت ناقلة متينة .. متماسكة .. بمحرك من عيارمحركات (الفورد) العسكرية الأمريكية وكان زمنئذ (بلقايد) شابا ممتلئا فتوة ويفاعة ، متشبعا بروح المغامرة وارتياد أخطرالمعابرولم يكن يشغله أمرأكثرمن أن يصل الركاب واحدا واحدا إلى أغراضهم في سلام وبأقل
الأتعاب ... بيد أن المسالك بقيت هي هي بحفرها وحافاتها القاتلة ومطباتها المدببة وعلى العموم لم يكن هناك طريق آخرغيرهذا الذي كان وما زال يسلكه (بلقايد) كل أسبوع .

قال (بلقايد) للكريسون : قدرنا أن نرحل بالليل وليس بالنهارورغم هذه المجازفة لم نسلم من أعطاب الليل بل لقد وجدنا أن أعطاب الليل أخطرمن أعطاب النهار.. إنني أحس بها مثلما أحس بقلبي وقتما خفق بين أضلعي .. صمت ثم أرسل ناظره في كل الأنحاء ، ضرب على المحرك براحته وأردف :

ـ أذكر يوم توكلنا على الله وانطلقت هذه الناقلة في أول رحلة مخاطرة كانت زمنئذ أول ناقلة في البلد تخترق هذه الفيافي المرعبة وأذكرأننا وشحناها بالأعلام الوطنية وأقمنا لها عيدا باذخا في ساحة (لهديم) وقد أمرني مالكها الحاج البلغيثي بتبخيرها بالجاوي والحرمل ورشها بالحليب درءا من طلقات عيون الجيران الشريرة والحقودة ... وظننا جميعا أنها سوف تسهم بالفعل في تنمية الواحة وتزويدها بالسلع والتجهيزات العصرية وعموما تخليصها من نيرالتخلف وشظف العيش ... بيد أنه لم تمض بعض سنوات على ذلك حتى حصلت الكارثة !!

تساءل الكريسون باندهاش بالغ .

ـ ماذا حدث ؟!

ـ انفجرت العجلة الأمامية في أول رحلة واعتقدنا جميعا أننا وجميع الركاب مقبلون على هاوية لارجعة بعدها ، لكن الحمدلله توفقت بمعونة الله وعرفت كيف أعانق المقود بحزم ويد من حديد وأختارالسرعة المناسبة بالضغط على الدواسة شيئا فشيئا حتى سلكت الجرة بالسلامة وتوقفنا في المنعطف ...

قال رفيقي : أتدري لقد مللت هذه الرحلات على هذه الناقلة المرتعدة كل عطلة .. إنها تشبه ناقلة الجامعة التي يستعملها الطلاّب في خرجاتهم الإستكشافية والدراسية ...

وأجبته :

ـ نعم لقد كان خالي المهدي يحكي عن مثيلتها في الرباط كلما زارنا في البيت يوم الجمعة وكان يقول لوالدي مولاي إدريس بمزاج مازح إنها مظهرمن مظاهربؤس المعرفة في الوطن العربي ...

صمت رفيقي وحدست أنه غفا مع مثله مثل باقي الركاب البدوحين لمحت الكتاب ينفلت من بين يديه من دون أن يدري وألفيت نورالناقلة يخترق سجاف الظلام بالكاد ومن بعيد كانت تتراقص أنوارقليلة كرؤوس أعواد الكبريت ... جعلنا نقترب من ضوء أمامنا على الطريق فكان نورمقهى قروي رابض على أكمة غربة ليلية قاتلة ولمحت من خلل بصيص النورالخافت جملا يلوك ضلفة صبارفي صمت مقرف ومطلق ... كل الأشياء هنا رأيتها تقضي مآربها وحاجاتها في هذا الصمت الأزلي...

كانت تنبعث أصوات مختلطة لأمواج ايذاعية متقاطعة ..غنغنات متداخلة ـ أمازيغية ، عربية ، فرنسية ، إسبانية ـ من راديو(ترانزيستور) محملا ببطارية (السبع) مربوطة بخيط المطاط ... كان منظرا ناشزا ومقرفا ومقززا، يهيج كل الأسقام النفسية الكامنة في اللاشعورالفردي والجماعي ...

ودعني رفيقي ...أدخل كتابه الأحمرفي حقيبته ونزل ... رأيته من خلل الزجاج يحيي صاحب المقهى وكانت ايماءاتهما تعبرعن كلام على سبيل (لاباس .. بخير .. والحمدلله .. على السلامة وبدا لي أنهما جارين قديمين . أخذ (بلقايد) دلوا مملوءا وأفرغه في جوف (الرادياتور) الذي شرع يفوروينفث البخاروألفيت الطالب قد غاب رويدا رويدا في غورالظلمة مستعينا بمصباح يدوي وكان ضوؤه يتضاءل شيئا فشيئا كلما إبتعد حتى صارفي حجم نورعود كبريت .

أدار(بلقايد) مفتاح المحرك .. انتفضت الناقلة ، ثم اندفعت إلى الأمام كأنما أصابتها نوبة سعال ولاح لي الكريسون يعدوخلفها وبيدة حصار(الكالا) الخشبي وبعد مسافة قصيرة وحين تأكد من أن الناقلة إسترجعت صوابها وعافيتها إرتمى بداخلها عبر الباب الأمامي وهمس ل(بلقايد) بسرما ... عجبت لها كيف تقطع كل هذه المفازات ليلا ومنذ سنين عديدة من دون أن يفكر(بلقايد) في تغييرالمحرك والمقاعد والنوابض وطلاءها الكستنائي الداكن مثل لون الشاحنات العسكرية الضخمة ... من يصدق أن ناقلة مثل هاته طافحة بصدئ الإنهاك والإستنزاف اليومي ، من يصدق أنه بإمكانها أن تسهم في عصرنة وتحديث حياة الدواويروالمداشروالقصبات النائية والقصورالبعيدة ؟!

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

كان (بلقايد) و(الكريسون) يعبران مسالك الصحراء وهما مغمضا العينين ... يعرفانها حبة حبة وخيمة خيمة وهضبة هضبة ونخلة نخلة وقصرا قصرا وكانا يعرفان أيضا ركاب الناقلة واحدا واحدا... ولذلك كان (الكريسون) يوزعهم على الكراسي حسب تعليمات (بلقايد) وبالتراتبية الإجتماعية التي تليق بكل راكب منهم ... وفهمت مع طول المسافة لماذا جلس الرجل الأبلق البدين ذواللبسة الأريستوقراطية وزوجته الدكالية الجميلة مباشرة خلف كرسي والتاجران الفاسيان في الكراسي الوسطى في مكان آمن من اهتزازات المطبات والحدبات .. والطالب في المقاعد الخلفية إلى جانب عمّال البنّاء الأشقياء القادمين من ورشات مدينة مكناس.

ولست أدري كيف داهمتني في تلك اللحظة صورالعائلة وتذكرت والدي وأمي وزينب وعمر، وتخيلت والذي يخرج من ورشة المدرازمهرولا.. عاضا على تلابيب جلبابه من دون أن يودع الحاج الشبيهي الزرهوني ويعدومهرولافي الحومة ثم يدفع باب الداليخبرأمي بمخاطرتي السفرية وحدست وأنا رأسي بين يدي أنها ستمرض وتخيلتها مرضت بالفعل واحتلت مكاني على السداري في المراح تحت الدالية وكانت معصوبة الرأس وعلى صدغيها أقراص الحامض وأوراق السوسن على هامتها التي وخطها شيب من سهر الليالي وتخيلت أيضا بيتنا تتصدع سواريه وتتراكم في أركانه الأدران وتعمه الفوضى وتخيلت بيتنا هوالآخر يمرض وتتداعى عماده وأمي تزداد هزالا ووالدي يرابط صباح مساء في ساحة (لهديم) ... لكنني سرعان ما همست نفسي الذي كان .. قد كان ... والرحلة في البحث عن لوحتي مهما عظمت أوهانت فهي أهون علي حتى من الرحيل الأبدي !!

جرفتني وسنة لذيذة .. لم أدرك كم مرمن الوقت علي وأنا محلق في بهاء حومتي التي تركتها ورائي تارة وغائص في قعرالأوقيانوس الرملي الأبهى مرة أخرى ... حين استفقت فجأة رأيت الناقلة تقطع الوادي العميق وكان أزيزها يتصادى بين حيطان الفج ويرتد إلينا عبرنوافذ الإغاثة مخلوطا بدخان العادم .

أشرقت علينا شمس يوم السبت.. يوم السوق الأسبوعي .. رأيت بعض السواق راجلين وبعضهم على الدواب.

ظننت بادئ الأمرأننا على أبواب (الواحة) بيد أنه كان يلزمنا زهاء أربع ساعات مشيا على الأقدام لوصول السوق ولذلك شعرت بتعب زائد وبإشفاق لامبررله على هؤلاء البدويين المتلفعين في دراعات وجوخ الشقاوة والخشونة والجلد اللامحدود... وعجبت لقدرتهم الغريبة على تحمل سياط الصهد ونشوق الغبارالمهيج لنوبات العطسات القوية وعناد المسافات الطويلة المتعبة... غيرأنني وبعد برهة تفكيراقتنعت أن العادة تبني التعود وهما سكتنا السلوكية التي تقودنا إلى نفس الطريق الذي توهمنا به الدهشة أننا نعبره لأول مرة ... وكل البشر، لولم تكن نعمة العادة والتطبع فيهم لماتواجوعا وللبثوا بدائيين كما عاش أسلافهم في القرون الخاليات ... فعادة السوق الأسبوعي على الأقل يجدد فيهم الشعوربآدميتهم وعلاقتهم بالآخرويمدد حياتهم بعادة الأكل والثرثرة والتبضع وترقب السوق المقبل وهكذا كل سوق يلفظهم للسوق المقبل ...

أخيرا لاحت لنا ساحة تعج بالدواب والناس والخيام ، وتغطيها زوبعة من الغبارالكستناءي الثقيل الواطئ .

رست الناقلة تحت سقيفة ظليلة ، أحسست بقدمي كأنما تطآن لأول مرة جزيرة بعيدة حبلى بالأسرار... شعرت كأنني أولد ثانية ..غمرت صدري شهقة هواء مشبعة بحرارة الخلق ... إستدرت وعاودت الإستدارة وتمليت المكان من كل الجهات ، ألفيت كل شيء من حولي مشدودا بحبال سماوية الأرض والإرتباط بفاكهة التمرونخوة الإبل وكبرياء النخل وكؤوس الشاي العسجدي المنعنع ...

دلني (بلقايد) على مقهى (بوخرصة) . زررت قميصي ذي اللون الترابي وتوجهت وسط مهرجان السلع والألوان البدوية المشعة بإفراط وقوة ... رأيت سيدات مسنات متلفعات في حوائك سوداء وبنات تشرق قاماتهن بألوان الفساتين الصارخة : اللون (الفانيدي) يؤاصرالأصفر(الكناري) والأخضرالفاقع يشاكس الأحمر(العكري) وألوان أخرى غابت عني وعن قاموس الطبيعة أسماؤها ...ألوان مشوبة بالتماعات خيوط الصقلي المذهب والفضي اللماع .. ألوان مستوحاة من الفلسفة الطبيعية الأصيلة .

دلفت بتوأدة وحذر .. حاصرتني النظرات .. فاتحني (بوخرصة) بمزيد من التأدب :
ــ أشنو حب الخاطر ؟!
قلت :
ـ براد أتاي (الشاي) ...
اقتعدت على الحصيرالذي خرمته في كثير من المواضيع كثرة الأقدام والعجيزات وأعقاب العكازات ... بعد حين أتاني النادل ببراد الشاي .. ترشفت .. وعلى حين غرة حننت لكؤوس الشاي الفواح برائحة النعناع العدنية في الدار... وجدت هنا الشاي أحمرقان جدا ... أحسست بلحمة لساني تتشمع ومذاق ريقي صارمحنظلا... تساءلت لماذا كل الأشياء هنا في الواحة ـ كل الأشياء الساكنة منها والمتحركة ، الثابتة والمتحولة ، السائلة والجامدة ـ لها كل هذا النزوع الغريزي إلى العنف الرمزي والمادي ووجدت الإجابة بكل بساطة في مقولة قديمة ومبتذلة : الإنسان بن بيئته !!
كأس شاي حياتي منتصب أمامي ، كأس قاسية وطاعنة في المذاق .. استسلمت للرشفة الأولى ـ أحتجت إلى الكثيرمن الصبركي أحتسي هذا (الحدج) النازل إلى الأحشاء ... ناديت على (بوخرصة) ، تجاهلت براده ونقدته ثمن المشروب وسألته : هلاّ دللتني على رحال ولد (ايزة) الذي يسكن في مدشر(البير) ؟ وهزرأسه طالبا مني أن أتريث قليلا فالمقهى يعج بمعارفه ، وراح إلى شلة متحلقة حول صينية نحاسية وبدا أنه يسألهم ، ثم عاد إلي وقال أن (الزربان) رآه في خيمة العطاراليهودي (موشي) ولايظن أنه سوف يلتحق بهم . وبعد برهة رأيتهم يتفرسونني مليا بعفوية ومن دون خجل وخمنت أن حديثهم صاريدورحولي على ايقاع طواف غليون (السبسي) بينهم من اليمين إلى اليساروِمن اليسارإلى اليمين وكؤوس الشاي تعلووتنزل، بعد لحظة دعاني المعطي للجلوس معهم .. ففعلت من دون تردد فحملت حقيبتي ولحقت بشلتهم وما إن قعدت حتى قدم لي المعطي كأسا حارة ومرة استعملت في تجرعها الكثيرمن التأدب و(الصواب) وفي الحقيقة الكثيرمن التنازل ... كان براد يصعد وبراد ينزل ومعه (سبسي) يذهب وآخريؤوب وفوق كل هذا ثرثرة تلاحق ثرثرات أخرى لأحاديث تتكرركل أسبوع من دون شك عن الجفاف وآفة (البيّوض) وعلف البعيروالماعزوأمراض العيون (الرمد الحبيبي والتراكوما وغيرهما ...) وقضايا تعدد الزوجات وسياسة المخزن الفاشلة في النهوض بالمنطقة للحد من الهجرة شرقا وشمالاوغربا ... تعرفت على عبدالله وخليفة . كان المكان يعبق برائحة (الكيف) .. ثرثرة فوق (الكيف) مشفوعة بالأيمان الغليظة وخبطات الأكف على الأكف وأصوات احتساء (الدكّة) ...
من باب المقهى كنت أرنوإلى ساحة السوق .. جلبة وغباروسلع منثورة في فوضى صارت بالعادة الأسبوعية نظاما بالتوافق التلقاءي ... كلاب ضالة تحوم بين الأقدام المتشققة المغبرة قرب المجزرة ، ثم ركلات طائشة يتبعها نباح وعواء وصراخات بأسماء متعددة ...
وضع (بوخرصة) طجينا وأقراص الخبز... ربت (الزربان) على كتفي :(مرحبا بك أولدي ... باسم الله تغدّى .. كول ، ما تحشمش انتما الناس فالغرب تديربزاف ديال الصواب .) صمت برهة وقال عبدالله : سوف يظهررحال لاتقلق ولاأخفيك سرا ياولدي أن العلاقة بيننا نحن أبناء العمومة قد ساءت معه منذ عودته من المدينة غداة جنازة المرحومة (وردة) . وفاجئني سؤال المعطي : ألست ابن مولاي إدريس ؟
قلت :
ـ أجل أنا هوعثمان ...
ـ يا سبحان الله .. يا سبحان الله ، لم نتردد ثانية حين رأيناك أول وهلة قبل أن ننادي عليك لتجالسنا أنك عثمان ولد مولاي إدريس رغم أنك قد كبرت وتغيرت قليلا محياك وملامحك .
وقال عبدالله :
ـ مازلت أذكرصورتك في اللوحة وهي بين يدي المرحوم العماري قبل عشرين عاما في هذا المكان لوكان المكان ينطق ! انظر يالمعطي كأننا مانزال في نفس العام وحول نفس القضية وكأن عثمان لم يكبر..!
قال خليفة :
ـ أجل كانت لوحتك معفرة بالتراب .. وقد كانت مخبأة بين ألف طية وطية من الملابس في الحقيبة البنية

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

و ما زلنا نذكرها جميعا بقسماتها وأساريرها ...
وقدم لي المعطي كسرة خبزوأقسم أن آكل مضغة اللحم الباقية في الطجين (بلا منحشم) . ولكزه عبدالله وهويقول دعه ومزاجه هذا هوطبع ناس (المدينة) .
وعلى مضض ابتلعت مضغة اللحم وأحسست بها كقطعة مطاط شعرت بالمضغة هابطة عبرقناة الحلقوم ، وتجمع هواء ما في جهة من أحشاءي وصاتت أمعاءي بقوة وتلوت وفجأة تجشعت وأطلقت جشعة طويلة دون أن أشعربضيق بينهم إذ كانوا جميعا يتجشعون من حولي على راحتهم ومن دون عقد اجتماعية تقيدهم بها مدنيتنا الزائفة وقلت في نفسي لوفعلتها على مائدة الدارقرب والدي لصفعني على قفاي وحرمني من إتمام الوجبة والحمدلله أنني أنعم اليوم بعادة فزيولوجية كنت محروما منها منذ مدة ولأول مرة في حياتي عرفت بالتجربة الحية أن الضغط يولد الإنفجار، ومسح المعطي المرق الدسم العالق بفمه براحة كفه الخشنة ورأيت أن (الزربان) فعل نفس الشئ مثله ، وحدست أن الآخرين لامحالة مثلهما فاعلون ، ومن دون أن أدري نفضت يداي من فتات الخبز ورأيت كفي ترتفع تلقائيا وتتجه نحوفمي وتمسح هي أيضا المرق العالق به ... وشعرت بغبطة وانشراح لم أعشهما من قبل وبفقاعة هواء فاسد تخترق الأمعاء وتنحدرإلى أسفل البطن وأخيرا (فجرتها) بكاتم الصوت ورنوت إليهم خلسة فلم ألحظ على وجه أي منهم انقباضا أوتقززا أوامتعاضا حتى ، ورأيت كيف أن الحياة بينهم تسيركما شاءت لها السجية أن تسيربيسروطلاقة طبيعة ، وكرعنا من نفس القدح وحمدنا الله جميعا على نعمه التي لاتعد ولاتحصى وعاد (بوخرصة) ووضع برّادا آخرعلى الصينية ورأيت أصابعهم تمتد تلقائيا لأعواد الحصيرلتشذيب أسنانهم التي علا لثتها خيضور بقايا الطعام وقلت :
ــ وكيف ساءت العلاقة بينكم وبين ؟!
ورد خليفة :
ـ قد لاتظن أن السبب هو صورتك على اللوحة !!
وأجبت مندهشا من إجابة خليفة :
ـ إلى هذه الدرجة ! كيف حدث هذا النزاع حول لوحة لاتستحق في رأيي كل هذه الحرب الأهلية الصغيرة بينكم ...
ـ صدقني يابني أن هذا اليوم هو يوم السعد ويوم عقيقة ثانية بالنسبة لك ...
ـ ماكنا لنصدق حتى في المنام أننا سوف نحظى يوما ما بمجالستك يا ولدي والإستأناس بطلعتك وحديثك الشهي !
ـ إن ابن عمتك رحال قد حرمنا من رؤية جدنا (بالمختار) حين حرمنا من رؤية صورتك لوحة الشيخ عبد الكامل قلت وأنا ما أزال منبهرا بهذه الإفادات :
ـ ومن أدراكم أن الصورة تشبه جدنا (بالمختار) ؟!
ـ كل الشيوخ المزمنون والمسنون أكدوا لنا ذلك ...
ـ أتمنى أيها السادة أن أقتبس من نورجدكم تقواه ووجاهته وورعه وشهامته وحصافته وتاريخه المضمخ بدم الإستشهاد من أجل الوطن ورموزه ...
ـ يا عثمان ما أحوجنا اليوم إلى رؤيته ولقد وددنا لو أودع رحال الصورة عند الفقيه (الصادقي) كي نتملاها وقتما نرغب في ذلك .
ـ إلى هذه الدرجة أيها السادة !! إلى هذه الدرجة !! لقد أكثرتم علي .. رحماكم من أشياء لاأستحقها ؟!
ـ أجل يا ولدي إلى هذه الدرجة.. أجل ... ولم العجب في ذلك !!
ـ اسمحولي ، لاأخفيكم سرا أنني قطعت كل هذه الفيافي على متن تلك الناقلة البغيضة المهترءة من أجل البحث عن لوحتك وأسرلكم أيضا بأنني قد أقدمت على هذه المجازفة من دون علم والداي وأنا على يقين أنني بهذا المغامرة المفاجئة قد أضرمت فتنة في الدارلاتقل فاجعة اختفاء صورتي غداة رحيل المرحومة (وردة) ...

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

ـ الحمدلله (ردخليفة) على كل حال أنك تساوعنا الآن وجها لوجه .. نتشرب قسماتك الجنوبية وحرارة لونك ونتنصت إلى نبرات صوتك الذي لم تفلح المدنية في طمس أوتاره الأصيلة ...
ـ عفوا .. عفوا ، لقد أكثرتم علي بكلام اشتم فيه عبيرصدقكم ... وأحمدالله أن كانت الصورة سببا في رحلتي باتجاه ماض سحيق يتضوع عراقة وعتاقة .. صدقوني أنني أشعرالآن كأنما أتطهرفي نهرمقدس وأتلفف بقماط الميلاد ثانية .. غيرأنني أشعربحاجتي أكثرإلى رؤية رحال لاسترداد حق من حقوقي الطبيعية : هي صورتي الأولى ، إنها أيها السادة العهد الوثيق الذي طوقني به الشيخ عبدالكامل واختفى ...

0-0-0-0-0-0-0-0

انطلق محرك الناقلة عند الغروب .. أغلق العون الباب وتحركت باتجاه بوابة السوق المفضية إلى مسالك وشوابك الطريق الشمالية .. أحسست بنوبة غربة خفق لها قلبي ... وبقدرما كانت الناقلة تبتعد عن ناظري عائدة إلى المدينة بقدرما كان إحساسي بالغربة يكبر.. كانت الناقلة تنأى عنا ثم في لحظة ابتلعها الغبار.. قال لي عبدالله : إنها ستصل غدا في مثل هذا الوقت إلى (لهديم) .. والكل يعرف أن (بلقايد) يفضل الأسفارالليلية حتى يتلافي صهد النهاروسهام شمسه اللاهبة.
جعل السواق يلملمون سلعهم على حاويات الإبل والبغال والحميرإستعدادا للعودة ...
أول يوم إذا ينقضي ب(الواحة) ... حدست أن خبرقدومي قد سبقني إلى عمتي (ايزة) في قصر(البير) حيث وجدت رحال واقفا بالباب .. حليق الوجه .. يرتدي دراعة بلون (الموتارد) .. مفوفة بخيوط سوداء دقيقة وقد تحلق حوله أبناؤه بحلاقتهم الصحراوية التقليدية .. كان رأس عبدالقادريقطعه شريط من الزغب الخفيف إلى شطرين وفوق الصدغ الأيمن قرص مزغب أما مبارك فقد كانت تتدلى من قنته ضفيرة تمتد إلى ما تحت قفاه .. ورأيت العمة (ايزة) تترقبني من الكوة العالية ووجهها ملفوف في خمارها الأسود... كان الباب المتشقق والمتداعي ـ الذي يتحول إلى أرجوحة يتدافعها الأولاد ـ مشرعا بالكامل ... عانقني رحال بقوة وقبل الأولاد يدي في خجل .. دلفت وراء رحال متوجسا .. كان المدخل مظلما متربا وعميقا .. نزلت (ايزة) .. قبلت رأسها ويديها.. وصاتت في أذني أساورالنقرة الصافية .. وسمعت فاطمة تسلم علي من داخل (الكشينة) بخجل كثير...
كان كل شئ من حولي يوحي بالإحتفاء بمقدمي ـ صينية النحاس ، معدات الشاي والسكر، الغلاّي على المجمرينفث أبخرته ، صحون من أصناف التمر، واللوز، والكركاع ، وطبيقة الخبزعلى رف النافذة ... اقتعدت طنفسة معدة للضيوف ورأيت اللمبة على رف الكوة التحتية في البيت .. طفقت أتفرس ملامح رحال على نوراللمبة .. قلت في نفسي كبررحال وغارت تجاعيده وتغضن عنقه واندلقت تحت الذقن حويصلة صغيرة..
دخلت عمتي (ايزة) ثم فاطمة ودخل بعدهما الأولاد الواحد تلوالآخر .. كنت كلما رفعت عيني أراهم يتملون في وجه هذا القادم من (الغرب) الذي يتمثلونه مثل جزيرة مرصودة مسحورة من جزرحكاية الأزلية ... قال رحال للعمة (ايزة) : الحمدلله أن أطال عمركم حتى رأيتم عثمان رجلا يأتينا رجلا وحيدا من (الغرب) . والتفت إلي وقال:
أما تزال تذكر(كن رجلا) وحصاني (الكوتشي) ومولاي ادريس يتحدث عن الحرب العالمية .. لن أخفيك سرا إنني حدست أن صورتك في اللوحة قد فجرت قيامة القيامات في الداروتخيلت كل أطوارمحاكمتي غيابيا أليس كذلك... حدثني ياولدي عثمان ماذا وقع غداة عودتي إلى (الواحة) ؟.
قدمت لي عمتي صحن اللوز، أخذت بعض حبات وقضمتها ، فألفيت أولاها مرة وكرعت جرعات شاي لأتلف مذاقها وقلت :

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

لقد أصبت ياعمتي بنوبة صرع حادة وكادت أمي للاكلثوم أن تفقد صوابها ومكثت على تلك الحال عدة أيام وأخذني خالي المهدي إلى المشفى بعد أن ظن الجميع حتى الجيران أنني أصبت بمس عظيم ورغم أنني تماثلت للشفاء بعد ثلاثة أيام فإنني لم أنس الصورة التي انوشمت في وجداني كالأخدود العميق وقد أقسمت على أن أستردها طال الزمن أم قصر ...

ووجمت أساريررحال وارتعشت يداه وهويمسك بالكأس ويرتشف وخفضت عمتي برأسها وحمت ببصري حولهم فلم أرعلى أي جدارمن جدران الغرفة لااللوحة ولاأثرلمشجب يوحي إلى أنها مرت من هناك ، وخمنت أنها معلقة في غرفة الفوقي أوعلى الأرجح أنها مكتنزة في مكان ما قد يكون صندوق عمتي وانعطف الحديث بنا فجأة إلى متاهات (الغرب) ومدنيته المتوحشة واستشراء الفساد وجرائم السطووالقتل لأتفه الأسباب وأوراش البناء المغشوش وأحابيل (الطاشرونات)... وألفيت أن كل الأحاديث والأخباراماكانت لتصل إلى مدشر(البير) في الواحة لولا ناقلة (بلقايد) التي تلفظ كل سبت مع البدووالسلع أحاجي عديدة عن المدينة أغلب فصولها من نسج الخيال والفراغ القاتل، بل إن حادث قطع رأس قد يتدحرج على منحدرات الفراغ ككرة ثلج ليصيرعلى السفح كومة من الرؤوس المقطوعة ...

بعد تناول وجبة العشاء على صحن طيني من لحم الماعزالذي تجشمت عناء لوكه مرة أخرى وحساء (دّشيشة) بلبن الناقة ، صعدنا إلى السطح ، وجدت ملاءة رمادية عليها آثارالتقادم ومخدة على السورالواطئ .. جلست وأسندت برأسي على السور، ونادى رحال على ابنته (طاما) وطلب منها أن تستقدم مخدة أخرى .

كانت رجتي أقوى حين ارتمى ناظري في الليل الموشى بنثارات المجرات والثريات والكواكب الغمازة ... أحسست بذات الشهقة التي تغمرنا حين يمخرمركبنا البحرلأول مرة ، ورأيت في ذاك الملكوت المطلق كيف يكون ليل هذه الواحة شاعريا وجميلا حد العنف .. جميل بألقه القليل وانسياباته اللاّمحدودة وأهراماته السوداء التي تنبطح تحت أقدمها أقزام الحيطان الممسوخة هناك في المدن الشمالية... زمن بين الحلم واليقظة... ورأيتني أرتع في هذا المطلق الآسرالذي تنزّل فيه النيازك عن مخادعها...لأول مرة شعرت كم يكون الظلام أحيانا أجمل من مكاشفات النور... هذا الظلام الرائق الذي يغري بالتوغل في تخومه البعيدة حيث أسرارالماوراء... ورغبت لوخبأت في جيبي قطعة من هذا الليل الصحراوي الباذخ ، الصامت، المشحون بالحكمة كي أعلقها على المشجب مكان لوحتي في غرفتي بالمدينة... ليل مثخن برائحة الحناء العذراء التي لم تنغمس بعد في عسلها الأخضرأنامل الغواني الساهرات على شرفات حبرالعرس الموعود..

ومحاورات النخيل للنخيل ومهرجان الوشوشات بين الأكمام وسهرة الصراصيرالثملة على قدود كمنجات الصهد اللذيذ... همست في نفسي : الليل في الواحة أصدق الأزمنة على وأبقاها على الإطلاق...

صوت البراد يغلي على المجمر ... شعرت كما لم أشعرمن قبل بحاجتي إلى كأس شاي يثملني وينسيني وجع اللوحة والمسافات... فجأة سمعنا طرقات على الباب .. طرقات اخترقت الصمت الليلي الرهيب وأيقظتني من انخطافي الجواني إلى الفضاءات الطباق ...أطل رحال من كوة السور ..فجأة انتصب كالمذهول .. سمعت وشوشة (بلغته) على الأدراج تنزل بتوأدة ... وسمعته ينادي زوارالليل بالأسماء ، وتبادلوا عبارات (لاباس .. بخير.. الحمدلله .. على سلامة عثمان) وأدركت أن الأمريتعلق بالشلة التي استضافتني في مقهى (بوخرصة) وبعد برهة لاحت على نورالمبة الخافت أطياف عبدالله وخليفة والمعطي و(الزربان) يتقدمهم كما هي عادته في كل الملمات العابرة منها والهامة .

حيوني وصافحوني بحرارة الواحد تلوالآخروتلمست أكفهم مثلما كنت أتلمس حجرا ، وكان (الزربان) يحمل جرابا من الدوم وضعه جانبا وتبينت فيما بعد أنه مملوؤ بقوالب السكرمن نوع (النمر) ترحيبا بي ، وتذكرت (النمر) قالب السكروأيقنت أن (النمر) يوجد في كل الربوع وعلاقته بالبراد علاقة مأسسها تاريخ الصينية منذ أن زرع أول مستكشف أنجليزي قادم من السند حبات الشاي في ضيعته في القرن السابع عشر...

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

صعدت العمة (ايزة) وفي يديها كؤوس أخرى ... كان الجووالقعدة الأنوسة تنذران بسهرة رائقة حتى يتبين الخيط الأسود من الخيط الأبيض ، وخمنت أن سمرنا سيقلب كل المواجع والمواضيع القديمة والحديثة من آفات الجراد والجفاف و(البيوض) وأمراض العيون ومقتل العماري وانتحارحماد ومقتل (الضحية) ورهان (طارت معزة) واختفاء الصورة و.. و.. وتمنيت في سري أن تنتهي حكاية اللوحة هاته بما يرضيني ويرضي رحال والأهالي ونحن جميعا مشمولين بهذه السكينة الليلية الصحراوية الأخاذة ... كان (رجل الشاي) المعطي كعادته يعد البراريد المعتقة القوية الراعفة . قال عبدالله :

ـ ماأشبه الليلة بليلة روحية في قداستها وبهائها وروعتها المتفردة ... وما كان لنا أن نلتئم لولا رحلة عثمان ليصل الأرحام وهومن سوف يفوزبالأجرعند الله وها نحن بعد سنوات عديدة نعود إلى هذا السطح العالي الذي ياما ارتشفنا تحت نجومه وبدوره عشرات الدنان من لبن النوق وسقانا المعطي العشرات من البراريد وكان العماري رحمه الله يدفع بكل غال ونفيس من أجل ربح رهان (طارت معزة) ضد الجلاّد الفاسق (حماد) ...

إثرئذ صعدت (طاما) بطجين اللحم مخضربملوخية مجففة وقال (الزربان) :(علاش كلفت راسكو، حنا جينا لنحيي الرحم مع حفيدنا عثمان).. وقاطعه خليفة مبتسما : خصك تكمل دينك ومدشر(البير) فيه ما فيه من من الزين الصحراوي ومن الفتيات الحسناوات بنات العمومة ..! وأجابه رحال بأن أهل (الغرب) لايتعجلون الزواج مثلهم في الواحة ، وأردف : صدقوني أيها السادة هناك في المدينة يصعب على الشاب أن يحسم في قرارزواجه النهائي مثلما يصعب على النحلة أن تحط على كل الزهورفي آن واحد .

قال عبدالله : أما أنا فأخشى ما أخشاه أن أموت دون أن أنعم يوما ما برؤية صورة لي مثل صورة عثمان فالناس في(الغرب) بإمكانهم أن يستمروا أحياءا حتى بعد مماتهم !! فهذا الحانوت العجيب نعمة من نعم الله وهبها للإنسان كي يستمرفيه الإنسان ... فكيف عرفنا أن عثمان يشبه جدنا (بالمختار) لولاصورته في اللوحة ، ولسنا ندري لماذا لم يفكرشيخ الواحة في اقتناء المرسم إلى الواحة كي يوفرعلى الأهالي تعب السفرإلى المدينة .. اسمع ياولدي إننا هنا في الواحة الكثيرمن الأهالي يعانون من عقدة (الجهل بملامحهم) ودعني أعترف لك صراحة وبكل شجاعة أننا جميعا نجهل أنفسنا ونعيش فقط على فضلات (الغرب) التي تلفظها ناقلة (بلقايد) كل سبت ولكم فكرت في النزوح إلى المدينة لأتطهرفي مياه نهرها الريان وأتستحم على نورالكهرباء وأمشي على (الشانطي) الصقيل وأذهب إلى السينما وأشنف مسامعي بآلة (المانييطوفون) وأتفرج على الحلقة في (الهديم) .. الله يجازيه بالسلامة (بلقايد) الذي يحكي لنا عن كل هذا كل سبت ولولاه لكان انقراضنا أفضل من بقائنا على وجه الأرض... لقد أخبرني أن الماريكان يخططون ليطلعوا للقمرفي شهرفي الصيف القادم فهل هذا صحيح أيها السادة ؟! وعلى غيراتفاق بينهم رنوا بأعينهم جميعا إلى السماء ولم يروا قمرالواحة تلك الليلة إذ كان متواريا خلف سحابة داكنة ، وحدست في نفسي أن رغبتهم قد خابت حينئذ في تقديرحجم المسافة بين الأرض والقمروبدا أنهم لم يصدقوا النبأ . وقال (الزربان) أن الأرض قد تتزلزل من تحت أقدام البشربسبب ما يقترفه بنوا آدم جميعا من فواحش وكم مرة أشرفت البشرعلى على حافة القيامة ولولا أن الله عزوجل يشفق بحال المومنين لخسف بنا الأرض جميعا !!

وقال عبدالله : حاشا واش يطلعوا للقمرهذا شرك بالله وغضبه عزوجل آت على الكفاروحدهم لاريب فيه ...

قال المعطي : خلينا من هذ الخرايف ... اشرب أتاي .. اشرب أتاي ..

قال رحال : عمرالبراد .. اشربوا أتاي .. شربوا أتاي ...

قلت : اسمحوا لي يا سادة لقد جئت لأسترد حقا ضاع مني ، وعلاقتي بصورتي في لوحة سيدي الشيخ عبدالكامل هي علاقة جسد بروحه ... هي روحي وأنا جسدها الهارب بها في متاهات (الغرب) وكرامة الشيخ عبدالكامل ماتزال تسري في عروقي وصدقوني أنني لن أعود إلى المدينة إلاّ وهي في حقيبتي!!

لمحت رحال يتحرج وعيون الشلة تحاصره من كل جانب وأحسست أن حكايات كثيرة عن اللوحة تضطرم في صمت النظرات الملغزة الكتومة فجأة استند رحال على السوروقال : اسمحوا لي ياسادة أن أعترف

رواية "زمن العودة إلى واحة الأسياد"

لكم في هذه الليلة الموعودة الجليلة أنني وجدت نفسي مضطرا كي أخفيها عن عيون البصاصين والمتلصصين وخشيت عليها مثلما يخشى إنسان على أبنائه ... اسمعوا أيها السادة ، سأحكي لكم ماوقع ... وفي تلك اللحظة تململ الجميع واستووا في جلستهم :

ذات ليلة دسستها تحت دراعتي وسريت خلسة إلى المقبرة ودفنتها على بعد أمتارمن شاهدة جدنا (بالمختار) ومرت سنين عديدة وعاودتني فكرة النبش عنها لأتأكد من وجودها هنالك ولكم كانت فاجعتي أقوى وأمر حين ألفيت خماروالدتي الأحمروسعف النخل اللذان لملمتها فيهما مبعثرين ولم أعثرعليها ، وأيقنت للتوأن ماردا جنيا ربما قد ترصدني وانتشلها من مكانها المرصود ـ وأخذ كسرة خبزوأغمض بها عينيه وأقسم قائلا وحق هاذ النعمة اللي تعمي لي عيني ...

لكن كان هناك في أعماقي إحساس قوي بعدم تصديق خرافة رحال .. استمرالحديث بينهم وتغافلت عنهم كأن الأمرلم يعد يعنيني. وسمعت المعطي مرة أخرى يقول اشربوا أتاي .. اشربوا أتاي .. وجرفتني وسنة لذيذة وطفيفة وحين استفقت وجدت رحال يحدثهم عن رؤيته التي كان قد رآها منذ سنين في المنام عن الطائرالذي

تحول إلى نسرسجنه في قفص ...

خرجت الشلة عند الغبش الأخيرمن الليل ونزل رحال ليعد لي مكان نومي في الغرفة ، غيرأنني أصررت على البقاء على السطح ... بت مسهدا ، متمددا على ظهري أتملى العالم السماوي الرهيب وأطوف في مملكة الثريات العليا الفاتنة.

عند الفجر تسللت خلسة ومضيت عبرالزقاق إلى الواحة بين أحواض الحناء والفصة والملوخية .. قطعت الفج وكانت الأحجارتصيت من تحت حذائ ورأيت النخلات السبع التي كان يتنازع حولها حماد والعماري، ثم صعدت التل ودلفت المقبرة من المدخل الموازي خلف التل ... كان من اليسيرعلى كل زائرأن يعرف قبر(بالمختار) بمسحة المهابة والجلال اللتان توشحانه ، فقد كان يبدوعاليا على الربوة مسيجا بأحجارالطوب المطلية بالجيرالأبيض الناصع وفوق الشاهدة آنية ماء مطرزة بمداد القطران العبق .. تقدمت على مهل ..

أخرجت سكينا من تحت حزامي الجلدي وجعلت أنبش التراب باحترازحتى لا أخرم الصورة .. قمت بعملية النبش على شكل دائري حتى اتسعت دائرة من المركز إلى الحفافي وشكلت حفرة .. وكانت ديدان وجعلان وحشرات المقابرالمعفرة بالتراب الرخوتعدوفي كل اتجاه وتتعلق بأناملي . ولاح بعد وقت طويل مزق خرقة أحمرثم التماعة سنان سعف النخل .. وضعت السكين جانبا وطفقت أتمم النبش بأناملي برفق .. لمحت شيئا أبيض كنت كلما أزحت التراب تبدوالقسمات والملامح والأساريرتحت ضوء القمرالقليل...أتممت النبش بكل رفق.. أخرجت الخمارالأحمر، فتحته... كانت اللوحة ماتزال معفرة بتراب الشاهدة ... هوذاعثمان القادم من أغوارالماضي ، وتـهيأ لي أنني أرى يدا ثانية تمتد لتسرقها مني فأسرعت بدسها تحت السترة ... كانت بعيدة في جهة ما من جسدي .. لمسة الشيخ عبدالكامل ...

صعدت التل الرملي الدافئ .. اقتعدت صعيدا من حجرالطوب الرخوتحت نخلة مهجورة وطفقت أتملاّها فألفيتها ماتزال تحتفظ بالكثيرمن لمسة الشيخ عبدالكامل ... وتذكرت قيامتها منذ سنين خلت ... تذكرت باب الحانوت الأخضروتذكرت إرفع رأسك وانظردائما نحوالقمرحيث يتربع .. تذكرت كن رجلا .. تذكرت الأسقام والمسافات وجعلت أتحسس وجهي وجسدي .. قلت في نفسي واللوحة بين يدي ... هل أنا أحلم ؟!!

انتهت